



١٧

مِن أمهات الكتب العربيّة

العوضي الوكيل

المكتبة الصّغيرة

(١٧)

مِن أمّهاتِ الكتبُ العربيّة

العوضي الوكيل

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٣٩٦هـ
مايو ١٩٧٦م

الفهـــــرس

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

منذ صدور العدد الأول من هذه « السلسلة » . « المكتبة الصغيرة » ، بعنوان « توثيق الارتباط بالتراث العربى » .. كان عليها أن تستوحي من هذه المقدمة .. أو هذا العنوان ، بعض اتجاهها .. فكان أن التفتت الى التراث ، على نحو ما ، يتفق وظروفها وحجم اصداراتها .. ومن هذا المنطلق صدر من أعدادها أمثال : « جبل طارق والعرب » و « كعب بن مالك » و « أبو محمد البطال » و « أم عمارة » و « أبو دلف » و « عبد الحميد الكاتب » و « كرائم النساء » و « بنو الأثير » .. الخ .

ولكن .. كان هناك شيء هام .. لم تفعله بعد .. هو التعريف ببعض كتب التراث الهامة أو بعض أمهات

الكتب العربية التراثية •• وحينما أقول : بعض ، لا كل •• فانما أتوخى ، أن أكون واقعيا ، لأن التعريف بكل •• بل حتى بجلّ كتب الأمهـات ، مطلب صعب •• أو فلأقل انه مطلب واسع ، لا يتسع له حجم اعداد « المكتبة الصغيرة » ••

اذن فلنقف عند بعض تلك الامهات ، بقدر ما يتاح لنا من فرصة الوقوف •• وبالقدر الذى يصح أن نجيب به على ذلك السؤال الخالد ، الذى طالما يوجهه الشداة والناشئون ، بل غير الشداة والناشئين أيضا ، من الراغبـين فى مزيد من المعرفة والثقافة ••

ذلك السؤال الذى يقول قائله : ما هى كتب التراث التى تنصحنى أن أقرأها أو أتصفحها أو أرجع اليها حينـا بعد حين ؟

أو ماهى الكتب الأمهات فى التراث العربى •• ؟ وقد تختلف صيغة السؤال •• ولكن لا يختلف المحور •• وهو الرغبة فى التعرف على أهم الكتب العربيـة التى يستطيع المثقف اقتناؤها •• ليقرأها ، أو يرجع اليها ، أو يدمن النظر فيها •• أو يزوّد بها مكتبته ••

ولقد وفّر الأستاذ الكبير « العوضي الوكيل » للمكتبة الصغيرة •• ولقرائها الاجابة على مثل ذلك السؤال ، بخير ما يكون الجواب ، شمولا ، وتنويعا ، وجمال عرض •• متناولا الكتب الأمهات فى أبرز جوانب المعرفة •• فى الدين •• واللغة •• والأدب •• و التاريخ •• بحيث يصحّ أن تكون هذه الكتب ، نواةمكتبة منزلية قيمة لمن يهتم بتكوين مثل هذه المكتبة فعل ذلك بقدر ما وسعه اليه سبيل •• وبقدر ما اتسع اليه حجم هذه السلسلة ••

أريد أن أقول بعبارة أخرى ، ان التعريف ، لم يتناول كل الكتب الامهات ، فذلك ـ كما اسلفت ـ مطلب صعب ، وانما تناول منها عددا جيدا •• فى عرض جيد •• هو عرض الأستاذ الفاهم الدارس ، المطلع ، الذى اطال صحبته لمثل هذه الكتب •• وتوثقت بينه وبين مؤلفيها صلات ألفة ، مهما باعد الزمن بينه وبينهم •• تظل صحبته لهم قائمة ••

ولا غرو ان أطال الأستاذ « العوضي الوكيل » ملازمته لهذه الكتب •• فعرفها معرفة الخبير الفاحص •• فقد تعرّف اليها منذ صدر شبابه •• أيام دراسته في « دار العلوم » ،

هذه الدار التى عرفت باصالتها وحسن عنايتها باللغة العربية وآدابها وثقافتها • الى جانب اهتمامها بثقافة العصر ، وحسن مسايرتها لحضارته ••

وقد تخرج الأستاذ « العوضي الوكيل » من تلك الكلية فى عهد ذهبى من عهودها ••

بيد أن الأستاذ « العوضي الوكيل » ، مع ذلك اسم شهير فى الأدب المصرى الحديث •• فهو من شعرائه المعروفين ومن كتابه المشهورين •• وله فى الشعر لون متميز ليس هنا مجال الحديث عنه •• فهذه الكلمات ليست محاولة تعريف بالمؤلف الكبير •• وانما هى لمحة ضوء عابر سريع فحسب على مكانته الأدبية الرفيعة •• أكتبها لقراء هذه السلسلة فى المملكة العربية السعودية الذين قد لا تتوافر لديهم الاحاطة بمكانة المؤلف والا فهو فى مصر ، وفى غير مصر من أطراف العالم العربى ، معروف مشهور •• أو هو كما يقال : أعرف من أن يعرف ••

وللأستاذ العوضي ، صلات وثيقة بالأستاذ العقاد رحمه الله ، فهو من خاصة أصدقائه ، ومن رواد ندوته •• ومن الأوفياء لعهده ، فى حياته وبعد وفاته ••

والأستاذ العوضي ، مثل من أمثلة الأديب يجمع مجد الأدب من أطرافه ، فهو شاعر ، ناثر تراثي ، عصري ، محدث لبق ، خطيب .. كل ذلك أثر من آثار ثقافته الواسعة ومواهبه المتعددة .

وبعد ، فان « المكتبة الصغيرة » حينما تقدم هذا الكتاب القيم لقرائها ، ترجو أن تكون قد سدت ثغرة ، كان يجب سدادها وان تكون قد فعلت ذلك بخير من يمكن أن يسدها من فرسان هذا الميدان .

على اننى أحب أن يكون واضحا لدى قراء هذه السلسلة ، انها الى جانب عنايتها بالتراث وأصالته ، لم ولن تهمل المعاصر ة .. فهى تحرص على أن تكون متعددة الجوانب ، فى الحدود التى لا تخلّ بخطها الأول .. وهو استهداف الثقافة البناءة . ومن الله استمد العون ، ومنه أسأل التوفيق .

عبد العزيز الرفاعى
صاحب المكتبة الصغيرة

الرياض ٢٧/٥/١٣٩٥هـ
٧/٦/١٩٧٥م

تفسير القرآن .. للقرطبي

يقول ابن خلدون فى المقدمة : « اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب على أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع » ثم يقول : « وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ،» ويميز الناسخ والمنسوخ ، ويعرّفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه وتداول ذلك التابعون من بعدهم ، والتابعون اسم يقع على الطبقة التى جاءت بعد طبقة الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يزل متناقلا بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوما ، ودونت الكتب ، فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين » •

وانتهى ذلك ــ كما يقول ابن خلدون ــ « الى الطبرى والواقدى والثعالبى وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه

ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللســان صناعية من الكلام فى موضوعات اللغة ، وأحكام الأعراب ، والبلاغة ، بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل أو كتاب فتناسوا ذلك ، وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان فاحتيج الى ذلك فى تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم .

والسبب فى فساد الملكات كما ذكر بعض العلماء كثرة اختلاط العرب بالعجم ، وما دخــل اللغــة من فشو اللحن وشيوع الخطأ ، ويروون فى هذا المقام حكاية مفــادها أن أبا الأسود الدولي سمع قارئا يقرأ القرآن : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » فيخطىء فى لام ورسوله ويجعلها بالكسر لا بالفتح ، وقراءة الآية على هــذا النحو كفر صريح ، قالوا وكان خطأ هذا القارىء سببا فى تفكير أبى الأسود الدولى أن يضع قواعد النحو حتى لا يقع الناس فى مثــل هــذا الخطــأ .

وقام جمهور من العلماء المسلمين بتفسير القرآن الكريم منهم كما قال ابن خلدون، الطبرى صاحب التفسير المأثور كما يسمونه ، لأنه فسر القرآن بالقرآن أو بالسنة الصحيحة أوبما

نقل عن الصحابة والتابعين ، ومنهم الزمخشرى صاحب الكشاف ، وغير هؤلاء ممن لهم مؤلفات مذكورة فى تفسير القرآن الكريم ، ورووا عن شيخ الاسلام ابن تيمية أنه قال : الاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك والمنقول اما عن المعصوم أو غيره ، ويريد بالمعصوم الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك ، وهذا القسم الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا الى معرفته وذلك كاختلافهم في لون كلب أهل الكهف واسمه وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام .

وقدعاب الأستاذ الامام محمد عبده أولئك الذين يفسرون القرآن بدلالات الألفاظ اللغوية وحدها متجاهلين ما يطرأ على الألفاظ من تغيير فى دلالاتها بتغير الظروف والأحوال بين عصر وعصر وجيل وجيل .

وبين ايدينا كتاب من كتب التفسير العظيمة التى كتبت بعد نضج الثقافة العربية وازدهارها هو كتاب « الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان ،

والمعروف بتفسير القرطبى .

والقرطبى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر ابن فرح الانصارى الخزرجى الأندلسي القرطبى كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهـدين في الدنيا رحل الى الشرق ودخل مصر واستقر بمنية ابن خصيب (مدينـة المنيـا بمحافظة المنيـا بمصر) وتوفي بهـا ومن آيات زهده وورعه أنه كان يسير المأكل يمشى بثوب واحد ، وعليه طاقية ، وله مؤلفات أشهرها « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وارجوزة في أسماء النبى .

ويمتاز القرطبى فى تفسيره بالالمام الكامل باللغة والأدب والنحو وأصول الشريعة وفروعهـا وبأنه أسقط القصص والتاريخ وأثبت عوضها أحـكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ وقد وضح فى مقدمته أنه شرط على نفسه فى هذا الكتاب اضافة الأقوال لقائليها والأحاديث الى مصنفيها وقال انه أضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبـار المؤرخين الا ما لا غنى عنه للتبيين لكن بعض المحققين ذكروا أنه لم يضرب تماما عن ذلك فانه قد ذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السـلام فى الجنـة

فخانته ، وأن اليهود سألت النبى عن الرعد ما هو ؟ فقال : « ملك من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله » فهذه وأمثالها منقولة بغير تحر لوجه الدقة من الاسرائيليات التى اندست الى التفسير والأحاديث فى عصر المؤلف ، وفى العصور التى سبقته بقصد الكيد للاسلام والمسلمين .

وقد صدّر القرطبى تفسيره العظيم الرائع حقا بمباحث ودراسات شملت أكثر من مائة صحيفة من الجزء الأول، وهى مباحث ودراسات على جانب عظيم من الأهمية والقيمة كأنها مدخل الى ذلك التفسير العظيم ، وهذه المباحث والدراسات فى أبواب يشتمل بعضها على فصول استهلها بباب ذكر فيه جملا من فضائل القرآن والترغيب فيه ، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به ، ثم باب تحذير أهل القرآن والعلم من الربا ، ثم ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ به نفسه والمراتب التى ينبغى لحامل القرآن أن يبلغها ثم يأتى بعد ذلك باب فى حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه وباب فى تفسير القرآن بالرأى وبالجرأة على ذلك .

وبين مباحث هذه الأبواب مباحث تاريخية قيمة عن

جمع القرآن وسبب ذلك ، وكتابة مصحف عثمان واحراق ما سواه وترتيب سور القرآن وآياته ونقطه ثم تقسيمه وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وسوره ، وثمة أبواب عن القراءات السبع وما ورد فى القرآن من الكلمات الأعجمية •

وتختتم هذه المباحث والدراسات بباب فى الاستعـاذة بالله قبل قراءة القرآن التزاما بأمر الله تعالى فِي كتابه العزيز فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومسك الختام فى هذه المباحث البسملة وقد ذكر فيها سبعا وعشرين مسألة أظهرها ، الخلاف فى كونها آية من كل سورة أو غير آية بين مالك والشافعى وغيرهما من الأئمة رضي الله عنهم •

المجازات النبوية .. للشريف الرضي

تجيء أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من ناحية الفصاحة والبلاغة ، وروعة الأداء ، وقد حفلت الصحاح كصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والمسانيد كمسند الامام أحمد بن حنبل ، وغيرها بجمهرة من أحاديث الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .

ولما كانت هذه الأحاديث أصلا من أصول التشريع الاسلامى فقد عنى المسلمون بها جمعا وشرحا وتفسيرا على مدى العصور الاسلامية المختلفة .

واذا كانت علوم اللغة كلها قد نشأت لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد تصدّى لذلك الصفوة الممتازة من أهل اللغة والفكر ، وأخذ الأدباء والكتاب يحاولون فهم أسرار البلاغة والبيان فى القرآن ، وفى أحاديث الرسول الكريم ، ونشأ من ذلك نظريات بلاغية وبيانية ،

وألفت كتب تجمع بعض هذه النظريات والدراسات ، من ذلك كتاب « اعجاز القرآن » لأبى عبيدة المتوفى سنة مائتين وسبع هجرية ، وكتاب « الفصاحة » للدينورى المتوفى بعد أبى عبيدة بنحو ثمانين سنة وكتاب « اعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » للواسطى المعتزلى المتوفى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ثم جاءت بعد ذلك طبقات من العلماء والباحثين ، جاء الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن أحمد الحسين ، يرتفع نسبه الى جعفر الصادق ، وجعفر الصادق هو ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن على بن أبى طالب رضي الله عنه ، جاء الشريف الرضي فأضاف الى الدراسات البلاغية للقرآن العظيم وللحديث الشريف دراستين احداهما عن القرآن وجعل عنوانها « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » والأخرى عن الحديث النبوى الشريف وجعل عنوانها « المجازات النبوية » .

وبهذين الكتابين كان الشريف الرضي سابقا فى هذا المجال ، فلم يعرف قبل كتابيه هذين كتاب مستقل بذاته فى مجازات القرآن والحديث ، صحيح أن لأبى عبيدة كتابا مستقلا بذاته فى مجازات القرآن لكنه لم يقصد بكلمة المجاز

معناها الفنى البلاغى المعروف بل قصد بها الطريق ، وهدف الكتاب كله ــ كأقوال بعض الباحثين ــ ليس أكثر من اثبات أن القرآن جاز على النهج العربى وأساليب العرب لا يشذ عنها ، وأن بدا فى ظاهر الأمر أنه غير خاضع لطريقة العرب ، ولذلك كثر في هذا الكتاب الاستشهاد بما أثر عن العرب من المنظوم والمنثور فكأن أبا عبيدة أراد بكتابه أن يكون مجازا أى طريقا لمعرفة معانى القرآن الكريم •

وكتاب «المجازات النبوية» للشريف الرضي يجمع ثلاثمائة وواحدا وستين حديثا شريفا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم • سلك فى بحثها ودراستها كما يقول فى المقدمة ــ محجة لم تسلك ، وطــرق بابا لم يطرق ، ففى الحديث الشريف كما يقول في المقدمة أيضا ــ كثير من الاستعارات البديعة ، ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة ، يعظم النفع باستنباط معادنها واستخراج كوامنها « وقد قصد الى الايجاز والاختصار فى كتابه هذا حتى لا يجفو على الناظر ، ولا يشق على الناقل فان القلوب فى هذا الزمان (هذه عبارته والمقصود زمانه هو) ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة والاجراء فى مسافات الفضائل الطويلة لأنه لم يبق من الفضل

الا الذماء والذماء بقية الروح ــ ومن الفضلاء الا الأسماء ، وقد ذكر المؤلف مراجعه فى الحديث فذكر أنها « كتب غريب الحديث المعروفة واخبار المغازى المشهورة ومسانيد المحدثين الصحيحة وان ذلك كله حصّله بالرواية عن الرواة باجازة عن الأساتذة •

ونختار من الكتاب مثلا يدل على سائره قال فى الفقرة الثالثة والسبعين :

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الحياء نظام الايمان » وهذه استعارة والمراد أن الحياء يجمع خلال الايمان كما يجمع السلك فرائد النظام ، لأن الانسان الكثير الحياء يحجم عن مواقعة المعاصى ، ومطاوعة المغاوى ، فاذا قلّ حياؤه ، تفرق جماع ايمانه فأشبه السلك فى أنه اذا انقطع تهافتت خرز نظامه وهذا المعنى اراده الشاعر بقوله :

يعيش المرء ما استحيا بخير
ويبقى العود ما بقى اللحاء

وليس ينافى هذا الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «الحياء شعبة من الايمان» فانه لا يمتنع أن يكون

شعبة منه ويكون مع ذلك نظاما له » .

وقلنا ان الكتاب قد اختار ثلاثمائة وواحدا وستين حديثا وحاول أن يلفت الأنظار الى نواحى الجمال والبلاغة فيها فى عبارة بسيطة موجزة ، والشريف الرضي فى آخر الـكتاب يقول : وهذا آخر انتهائنا من كتاب مجازات الآثار النبوية على ما تخلل عملنا له من قواطع الاشغال وبواهظ الأثقال ، وعوادى الايام والليالى ، وقد خرجنا فى صدر هذا الكتاب من عهدة التكفل باستيعاب جميع ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من آثاره الملفوظة والأخبار المنقولة ، بما شرحناه من كلامنا الذى وقع الينا وقرب من متناولنا دون ما بعد عنا وشذّ عن أيدينا » .

ومن تمام التعريف بالشريف الرضي نذكر أنه ولد سنة ٣٥٩هـ وتوفى سنة ٤٠٦هـ فهو قد عاش سبعا وأربعين سنة ، حياة تمتاز بالنبوغ المبكر فقد نظم الشعر فى العاشرة ودرس النحو دون العاشرة على السيرافي العالم النحوى الشهير ، وقد انتهت اليه نقابة الاشراف الطالبيين فى بغداد فى حياة أبيه ، وألف كثيرا من الكتب منها سوى ما تقدم مختار شعر الطائى وابن حجاج ، وشعر الشريف الرضي يمتاز بالفحولة

والقوة وله قصائد كثيرة مشهورة فى الفخر والغزل منهـــا قصيدته الغزلية التى أولها :

يا ظبيــة البــان ترعى فى خمــائله
ليهنــك اليــوم أن القلب مــرعاك

ومنها قصيدته الفاخرة التى يقول فيها :

فان تك سنى مــا تطــاول باعهــا
فلى من وراء المجــد قلب مــدرب

وخير ما نختتم به الحديث عن الشريف الرضي هذه الأبيات التى يمدح بها الخليفة العباسي القادر بالله •

عطفــا أمــير المؤمنــين فأننــــا
فى دوحــة العليــــاء لا تتفــرق
مــا بيننــا يوم الفخــار تفــاوت
أبدا كــلانا فى المعــــالى معــرق
الا الخــــلافة ميــــزتك فــأننى
أنا عــاطل منهـــا وأنت مطــوّق

الجامع الصحيح .. للامام البخاري

شاع بين الناس أن الحديث النبوى الشريف لم يدوّن الا في عصر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حين كتب الى عماله في أمهات المدن الاسلامية انظروا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوه وذلك بعد أن جمع القرآن الكريم واتنهى الناس من كتابته .

لكننا نجد بعض المؤرخين يذكرون أن تدوين الحديث بدأ فى عهد الرسول ، وأن هذا التدوين تمّ بأيدى نفر من الناس كانوا معروفين فى ذلك الحين ، ولم يكن هذا التدوين عاما ، فقد ذكروا أنه كانت لعبد الله بن عمرو صحيفة دوّن فيها الحديث عن الرسول مباشرة بلا وساطة من اسناد أو رواة ، وكان يسميها الصحيفة الصادقة وكان لجابر بن عبد الله الانصارى صحيفة أيضا والأعبى بن مالك رضي الله عنهما .

وذكر أهل البحث من الثقات أن هذه الصحائف لا تتعارض مع الحديث الشريف لا تكتبوا عنى غير القرآن

ومن كتب عنى غير القرآن فيلمحه ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار •

قالوا ان ذلك كان بالنسبة لكتاب الوحى حتى يتفرغوا لمهمة القرآن أو أن النهي كان خاصا بكـتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة لأن مبدأ تدوين الحديث فى عصر النبى ثبت فيما رواه من أن رجلا من اليمن أسمه أبو مشاه سمع من النبى وطلب أن يكتب له ما قال فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى مشاه •

وأيا ما كان الأمر فان تاريخ التدوين الرسمى بدأ بأمر عمر بن عبـد العزيز ، وان كان باحث مـدقق كالأسـتاذ « أحمد أمين » فى كتابه ضحى الاسلام يشكّ في أن هـذا الأمر قد نفذ •

لكن الثابت أن التأليف فى الحديث بدأ فى منتصف القرن الثانى للهجرة ووصلنا مما جمع فى هذه الفترة موطأ الامام مالك ووصف لبعض المجمـوعات الأخـرى وكانت حالة التأليف الأولى فى الحديث هى مراعاة الموضوعات ومزج حديث الرسول بأقوال الصحابة وفتاوى التابعـين • أمـا المرحلة الثـانية فكانت مرحـلة المسـانيد وهى أن ترتب الأحـاديث وتجمـع على حسب رواتهـا لا على حسب

موضوعاتها ، وأشهر المسانيد مسند أحمد للامام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه .

وجاء القرن الثالث الهجرى ونضجت العلوم ، ونشطت حركة النقد لتمييز الصحيح من الضعيف ، وترتيب درجات الثقة فى الرجال ، وفى هذا القرن ألفت الكتب الستة فى الحديث وهى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داوود ، وجامع الترمذى ، وسنن النسائى ويلحق بها عادة مسند الامام أحمد .

والبخارى هو الامام محمد بن اسماعيل أمير المؤمنين فى الحديث كان أجداده من الفرس يدينون بالمجوسية وأسلم جده الرابع على يدى والى بخارى ، وكان جعفيا (وهذا نسب الى قبيلته) ولذلك يرد فى التعريف بالبخارى « الجعفى » ، وبدأ حفظ الحديث وهو ابن عشر سنوات ورحل في طلب الحديث الى الأقاصى والأمصار ، وسمع وروى عن أعلام من العلماء بمكة والمدينة والشام وبخارى ، ومرو وبلخ ، ونيسابور ، وبغداد ، وواسط والبصرة والكوفة ومصر وكان رجلا زاهدا ورعا تقيا عكف على العلم طول حياته .

و « الجامع الصحيح » للامام البخارى يقول في حقه

بعض العلماء : انه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، والاسم الكامل للكتاب هو « الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيامه » واشتهر بين الناس باسم الجامع الصحيح أو صحيح البخارى وروى أنه ألفه فى ست عشرة سنة وأنه كان يقول : ما كتبت فى كتاب الصحيح شيئا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، وذكروا أنه صنف فى المسجد الحرام والمسجد النبوى فى الروضة الشريفة ، وقيل انه ألفه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى .

وقد عدّ الحافظ بن حجر العسقلانى أحاديث الجامع الصحيح للبخارى فوجدها وبعضها مكرر ـ سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثا ـ وهناك المعلقات والموقوفات والمعلّق هو الذى حذف من مبدأ اسناده واحد أو أكثر وقد ذكر منه البخارى كثيرا وقد أحصى أحد العلماء كل ما ورد فى الكتاب فوجده بالمكرر تسعة آلاف واثنين وثمانين حديثا شريفا والموقوفات التى ينتهى سندها الى الصحابة .

ويسوقنا تشدد الامام البخارى فى تحرى حال الرواة الى أن نذكر أن من أسباب ذلك : الخلافات السياسية

والمذهبية التى قامت فى القرن الأول الهجرى ، وما تلاه وكيد بعض الناس للاسلام باختراع الأحاديث وتلفيقها ، وكان هذا وغيره سببا فى قيام علم مصطلح الحديث لمعرفة الصحيح والضعيف والحسن وغيره منها بمعرفة حال الرواة وفى مصطلح الحديث ألفت منظومات لسهولة حفظ التقسيمات المختلفة فيه .

ومن هذه المنظومات منظومة تسمى « غرامى صحيح » لشهاب الدين أحمد الاشبيلى المتوفي سنة ٦٩٩هـ وأولها :

غرامى صحيح والرجا فيك معضل
وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل

ففى هذا البيت ذكر من هذه التقسيمات (صحيح ــ معضل ــ مرسل ــ مسلسل) وكذلك المنظومة البيقوتية لطه بن محمد البيقوتى وفيها يقول :

اولها الصحيح وهو ما اتصل
اسناده ولم يشذّ أو يعل

ثم منظومة الصبان لأبى العرفان محمد بن على الصبان المتوفي سنة ١٢٠٦هـ وأولها :

صلوا صحيح غرام صبره ضعفا
وبدلوا قطع من فى حسنكم شغفا

ومن تمام التعريف بالبخارى أن تذكر شيئا عن مؤلفاته الأخرى الى جانب الجامع الصحيح ، فهنـاك « التـاريخ الكبير » وهو كتاب يخدم السنة النبوية الشريفة فقد حاول البخارى فيه استيعاب الرواة من الصحابة ثم من جاء بعدهم الى قرب عصر البخارى وقد رتّبه على حروف المعجم وبدأ بالمحمدين من الرواة تكريما واعزازا لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهذا الكتاب يدل على واسع علم البخارى بالرواة ، ويدعم الثقة بكتابه الجامع الصحيح . وقد كتبه فى المدينة المنورة فى الليالى المقمرة ثم له « التاريخ الصغير » وهو مختصر من تاريخ الرسـول الأعظم وصـحابته من الأنصار ثم التابعين . ثم له كتاب الكنى (جمع كنية) ذكر فيه من غلبت كنيته على اسمه ، ومن لم يعرف الا بكنيتـه (والكنية ما صدر بأب وأم من الأسماء كأبى القسـام وأم الخير وهم يعدون هذا الكتاب جزءا من التاريخ الكبير .

له كذلك « الأدب المفرد » من حكم الرسول ومواعظه ثم كتاب فى الفقه ككتاب رفع اليدين فى الصـلاة والقراءة خلف الامام وغيرها .

البيان والتبيين .. للجاحظ

الجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب ، عبقرى من عباقرة اللسان العربى وكتابه « البيان والتبين » ذخيرة من ذخائر الأدب العربى ، ولد فى سنة ١٥٠هـ ، كما يحدث هو نفسه فيقول أنا اسن من ابى نواس بسنة فقد ولدت فى سنة ١٥٠هـ وولد هو فى آخرها ، وقيل بل ولد سنة ١٥٦هـ وطالت حياة الجاحظ حتى نيّف على المائة بل زاد عليها وقد روى المبرد أنه دخل على الجاحظ فى آخر أيامه فقال له : كيف أنت يا أبا عثمان ؟

فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس ، لو طار الذباب بقربه لآلمه وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها .

الجاحظ عربى صريح النسب الى العرب ، يتصل نسبه بكنانة بن خزيمة فهو عربى مضرى ، لكن ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ينفى عنه هذه النسبة العربية ويزعم أنه

كنانى بالولاء لا بالنسب ومعناه أن بعض جـدوده كانوا عبيدا لكنانة ثم اعتقوا ولـكننا لا نرى ما رآه ياقوت ولو كان الأمر كما قال ياقوت لما نشط هذا النشاط الذى رأيناه فى البيان والتبيين لمحاربة الشعوبية والهجـوم على أولئك الذين يكرهون العرب ويتلمسون لأنفسهم أسباب الهجوم عليهم والتشهير بهم •

فى هذه الفترة من حياة الأمة العربيـة نضجت العلوم ونشطت الترجمة عن الفارسية واليونانية وازدهر الأدب شعره ونثره • وتطورت الكتابة الفنية على ايدى طائفـة من الكتاب العظام وارتفعت منزلة الكتاب ارتفاعا عظيمـا حتى كان منهم أعاظم الوزراء •

ونشأ الجاحظ بالبصرة فى وسط علمى عظيم ، ففيهـا عاش أفذاذ هذه الأمة كأبى الأسود ونصر بن عاصم وأبى عمرو بن العلاء والاخفش النحوى وأبو عبيـدة ، وكانت لهؤلاء حلقات علم ودرس فى مساجد البصرة وفى مربدها •

ونشأة الجاحظ كانت نشأة الفقير فقـد رووا أنه كان يبيع الخبز والسمك فى السوق ولكنه كان مشغوفا بالقراءة متلهفا على الكتب ومن أعجب ما روى عنه فى ذلك أنه كان

يكترى (أى يستأجر) دكاكين الوراقين (أى باعة الكتب) ويبيت فيهـا ليلا للنظر والقراءة ، ولقـد نتج عن ذلك أن الجاحظ كان دائرة معارف فى سعة معلوماته وكثرة معارفه وتآليفه والى هذا فهو متـكلم كاتب شـاعر مؤرخ عالم بالحيوان والنبات ، وقد أثبت ياقوت فى معجمه فهرسا كاملا لكتب الجـاحظ فى نحـو أربع صـفحات ومن أشـهرها « الحيوان » ، « والبيان والتبيين » و «البخلاء» و «التاج» وكتاب الحيـوان كتاب ضخم ، وهو معرض أدبى علمى لاحدى حدائق الحيوان الكبيرة وفيه فكاهات ممتعة يقول عنها الجاحظ ، تضحك كل ثكلان وان تشدد وكل غضبان وان أحرقه لهيب الغضب بل ان الجـاحظ اطلع على كتاب الحيوان لأرسطو ، وناقشه فى بعض مسائله يقول :

« وزعم صاحب المنطق ، يقصد أرسطو ، أنه قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له: فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض، فقال : أما السعى فلا تسعى ولكنها تسعى لحاجتها بالتقليب كما تنقلب الصبيان على الرمل ، أما الأكل فانها تتعشى بفم وتتغذى بفم وأما العض فانها تعض برأسيها معـا فاذا به أكذب البرية .

« والبيان والتبيين » ، يعدّه ابن خلدون واحدا من أربعة كتب جامعة هى أدب الكاتب لابن قتيبة ، و «الكامل» للمبرد والنوادر لابن على الثعالبى ، « والبيان والتبيين » للجاحظ .

وهذا الكتاب الفريد يصدره الجاحظ بمقدمة جميلة فى البيان والعى والحصر واللسان أداة الكلام ، واذا كان الصمت فى موضعه المناسب نوعا من البلاغة والبيان فقد تحدث عنه الجاحظ حديث الأديب المبدع ، وأجمل ما فى هذا الكتاب دفاعه الحار عن العرب ، وعن البلاغة العربية ضد الشعوبيين فقد هاجمهم الجاحظ وفنّد مزاعمهم . وأعظم ما ورد من ذلك فى باب العصا ، وسبب تسميته أن العربى كان يمسك عصا حين يخطب وأنكر الشعوبيون عليهم ذلك يقول الدكتور طه حسين : وأصل هذا الباب ــ باب العصا ــ ان الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة وينكرون على خطبائهم ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئة وشكل وما كانوا يتخذون من آداة ،

وكانوا يعيبون على العرب اتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون فكتب الجاحظ « كتاب العصا » ، ليثبت فيه أن

العرب أخطب من العجم وأن اتخاذ العربى للعصا لا يغـّض من فنه الخطابى أليست العصا محمودة فى القرآن والسنة والتوراة وأحاديث القدماء ؟ ومن هنـا مضى الجـاحظ فى تعداد فضائل العصا حتى أنفق فيها سفرا ضخما .

« والبيان والتبيين » من ناحية أخرى يعتبر أعظم مصادر الشعر والخطابة والمحاورة والرسائل فى الجاهلية والاسلام وعنه نقل ابن قتيبة والمبرد وابن عبد ربه صـاحب العقـد الفريد وأبو هلال العسكرى وابن رشيق .

واذا لم يكن من الميسور أن نعرض هذا الكتاب عرضا تفصيليا فاننا نكتفى بما مر عن موضوعه ونزيد عليه كلمة فى أسلوب الجاحظ فان له أسلوبا فريدا يشبه السياحة فهو ينقلك من فن الى فن ، ومن حـديث الى حـديث بل من موضوع الى موضوع آخر وهذا ما يسمونه الاستطراد ، وهو نتيجة منطقية لاتساع ثقافته وكثرة معلوماته .

وفكاهة الجاحظ رائعة ولعلها كانت لعلاج ملل القارىء من الاستطراد فيخرج من الجد الى الهزل ، ومن الحـكمة البالغة الى النادرة اللطيفة دفعا لسآمة القارىء والتماسـا لحسن متابعته .

وهو كاتب ساخر نقرأ رسالته فى ابن عبد الوهاب الكاتب فنجده يسخر منه أبلغ السخرية دون أن يتضمن الحديث كلمة واحدة فيها نبوّ أو خروج . من نوادره أنه حدث عن نفسه أن امرأة لقيته ببعض الطريق فطلبت اليه أن يتبعها حتى أتت الى صائغ وأشارت الى الجاحظ قائلة : مثل هذا ، ومضت لا تلوى على شيء فسأل الجاحظ الصائغ مثل ماذا ؟ فقال له ان هذه المرأة تريد أن تخيف ابنها الصغير بصورة شيطان تنقشها له فى فص خاتم فلما قلت لها : انى لم أر الشيطان حتى أنقش لك صورته أحضرتك الي .

الجاحظ زعيم فرقة من المعتزلة يعرفون بالجاحظية نسبة اليه ويقول ابن خلكان انه كان مشوه الوجه وانما قيل له الجاحظ لجحوظ عينيه أى بروزهما وقد ندبه المتوكل لتأديب أولاده أى لتعليمهم فلما رآه المتوكل استبشع منظره وأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه .

ومن تمام الحديث عن « البيان والتبيين » أن نقول انه ألف هذا الكتاب لأحمد بن أبى دؤاد وأهداه اليه فكافأه بخمسة آلاف دينار من الذهب .

يتيمة الدهر .. للثعالبي

هذا الفرّاء الذى كان يخيط جلود الثعالب ، ويحترف ذلك بين الناس ، ودعوه الثعالبى نسبة الى هذه المهنة التى كان يحترفها ، هذا الفراء يعظم شأنه فى عالم الآداب فى نيسابور عظمة تجعل عالما جليلا كأبى الحسن البخارى يسميه جاحظ نيسابور لما رأى من علمه وفضله ، وحسن تأليفه وتصانيفه فى الأدب واللغة ، فمن هو هذا الفراء الثعالبى العالم الأديب ، وما هى مؤلفاته ؟

هذا الفراء العالم الأديب أبو منصور عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الثعالبى ولد فى نيسابور عند منتصف القرن الرابع الهجرى وقد ضاعت ترجمته بين ما ضاع من معجم ياقوت الحموى ، والذى لم يذكر ابن خلكان عن أسرته شيئا ولم يتعد الجد الثالث له .

هذا الفراء الثعالبى ، كان عملاقا من أعلام عصره فى العلم والأدب وقد امتدحه كثير من الأدباء والمؤرخين وأثنى

عليه ابن بسام فى الذخيرة ولقبه الباخرزى ــ كما عرفنا بجاحظ نيسابور ، له مؤلفات كثيرة تدل على علو كعبه وسعة معارفه منها « يتيمة الدهر » الذى نتحدث عنه ومنها كتاب « فقه اللغة » ، وكتاب « سحر البلاغة » و «طبقات الملوك» و « المضاف والمنسوب » و « المقصور والممدود » و « المتشابه » ويقول الزركلى فى الأعلام أن له كتابا اسمه « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » وله كتاب اسمه « النهاية فى الكناية » وقد كتب فصلا فى تفضيل النثر على الشعر ، الأمر الذى دعا ابن رشيق صاحب كتاب « العمدة » أن يرد عليه مفضلا الشعر ، وتوفى أبو منصور الثعالبى سنة أربعمائة وثلاثين هجرية .

كتابه يتيمة الدهر وضعه فى أول الأمر سنة ثلثمائة وأربع وثمانين ، وهو شاب وروى فيه لشعراء عصره وافتتحه باسم بعض الوزراء تقربا به اليه كما يقول هو ــ ولكنه كما يقول هو أيضا ، كتبه فى مدة تقصر عن اعطاء الكتاب حقه ولا تتسع لتوفيه شرطه فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان وقضى به حاجة فى نفسه ثم أعاد تأليفه بعد مدة من الزمن لم يحددها لكن لهجته فى المقدمة تدل على تراخى الزمن بين

الكتابين ، على أنه لم يذكر فيها تواريخ ، لكننا نلاحظ فى ثنايا الكتاب ذكرا لبعض السنوات يفهم منها أنه الف بعد الكتاب الأول بمدة كما ذكر فى ترجمة ابى الفتح البستى الثانية اذ ذكر سنة أربعمائة هجرية •

كتاب اليتيمة كتاب تراجم ورواية أشعار ونقد لمعاصرى مؤلفه أو سابقيه بقليل وهو كما قلنا تنقيح لكتاب كان قد ألفه سنة ثلثمائة وأربع وثمانين هجرية بعد أن رأى المتقدمين وتواليفهم عن المتقدمين ورأى محاسن أهل عصره غير محصورة في كتاب يضم نثرها وينظم شذورها لكنه عاد فرأى أنه تعجل وان الكتاب يحتاج الى النظر والتنقيح ويقول الثعالبى فى ذلك فغيرت ترتيبه وجددت تبويبه والشرط فى هذه الأخرى (أى في النسخة المنقحة وهى لكتاب اليتيمة الحالى) هو ايراد لب اللب وحبة القلب وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفص مع كلام فى الاشارة الى النظائر والاحاسن والسرقات ونبذ من أخبار المذكورين ، وغرر من المترسلين ، يميل الى جانب الاقتصار فالكتاب اذن رواية مختارات ، ونقد وموازنة وتاريخ ، ولكن لفترة واحدة من عصور الأدب هى الفترة

التى عاش فيها أبو منصور أو قبلها بقليل •

على أن أبا منصور لم يعن بالتواريخ تمام العناية فلم يدوّن مولد الشاعر ولا زمن وفاته ولا كيف نشــأ الا فى تراجم قد لا تعدو العشر ومنها ترجمــة أبى الفتح البستى والصاحب بن عباد ، والمتنبى وانمــا يكون خص بعضهم بتراجم غاية فى الطول كالمتنبى فانه خصه بباب طويل استغرق مائة صحيفة ، وقد كرر بعض التراجم ، واللطيف فى الأمر أنه يعلل ذلك بأنه كتب الترجمة الثانية بعد أن رأى المترجم له وقابله •

قسم الثعالبى الكتاب أربعة أقسام الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام ومــا يجاورها ومصر والموصل والمغرب وصدر هذا القسم بفصل فى تفضيل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان والقسم الثانى فى شعر آل بويه ووزرائهم وأدبائهم ، وألحق به فصلا فى أشعار أهل البصرة ، وخص شعراء بغداد بفصل من هــذا القسم ، والقسم الثالث فى أشعار أهــل الجبــال وفارس وجرجان ووزراء الديلم ، وفي هــذا الفصــل يذكر (ابن العميد) وشمس المعالى وقابوس بن وشتمكير •

أما القسم الرابع فقد جعله لشعراء أهل خراسان وما وراء النهر من انشاء الدولة السمانية والغزنوية والطارئين على الحضرة ببخارى وخاصة أهل نيسابور •

ويبدو أن المؤلف كان حريصا على تعداد أسماء الشعراء أكثر من حرصه على الرواية لهم فهو أحيانا لا تحضره أشعار بعض الشعراء فيقيد أسماءهم ، ويعد باثبات مختارات منها اذا وقعت له أو يطلب من القارىء زيادتها فى كتابه ، ومن هؤلاء الآمدى الاديب الناقد ، وقد ذكر الثعالبى فى كتابه كثيرا من الشعراء الذين طوتهم العصور وأبقى كتابه أسماءهم وبعض أشعارهم •

وقد أكثر من رواية شعر المجون فى هذا الكتاب غير أنه يعتذر بأن هزل الأدب جد ، ولعل عذره أن موجة طاغية من هذا اللون الشعرى طغت على الأدب فى عصره طغيانا شديدا •

والثعالبى رجل صريح جدا اذا نسي شطر بيت أتمه من عنده وذكر ذلك بغاية الصراحة ، واذا سأله أحد الشعراء أن لا يروى له شعرا فى الغزل والتشبيب أجابه الى طلبه وأعلن ذلك للقارىء •

ولهذا الكتاب تتمة وذيول ، أما التتمة فقد ذكر بعض الباحثين أنه عثر على مخطوطها ، وأما الذيول فهى دمية القصر للباخرزى ودريئة الدهر لدلال الكتب وخريدة القصر للعمار الاصبهانى ، ولكتاب اليتيمة اختصار فقد اختصرها تقى الدين بن عبد القادر المصرى المتوفي فى السنة الخامسة بعد الألف من الهجرة ووقع الاختصار فى نحو نصفها الأول.

معجم الأدباء .. لياقوت

معجم الأدباء لياقوت الحموى يناظر معجم البلدان له أيضا ، والاسم الذى اختاره ياقوت لمعجـم الأدباء هــو « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » ويسميه بعض الباحثين « ارشاد الالباء الى معرفة الأدباء » ولــكن الاسم الأول أشهر •

أما ياقوت بن عبد اللهصاحبــه ، فهنــاك يواقيت ثلاثة تشترك معه فى الاسم واسم الأب ، ولثلاثتهم شهرة واسعة فى تاريخ الثقافة العربية ، ومن عجب أن تكون حياتهم جميعا قد وقعت فى القرنين السادس والسابع الهجريين وأقدمهم هو ياقوت بن عبد الله الموصلى الــكاتب ، ولذلك نجـد الياقوتين الآخرين يخافان من طغيان شهرته فيغير الثانى اسمه الى عبد الرحمن وهو ياقوت بن عبــد الله الرومى مهذب الدين ، الشاعر ، ويغير الثالث من اسمه الى يعقوب وهو ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ، ووفيــاتهم متقــاربة

التواريخ فالأول مات فى العقد الثالث من القرن السابع ، وكذلك الثانى أما الثالث فقد مات بعدهما ببضع سنوات •

الذى يعنينا من هؤلاء اليواقيت هو صاحب « معجم الأدباء » وهو الثالث الأخير وان كان الياقوتان الآخران لا يقلان عنه أثرا فى الثقافة العربية ، فان الاول منهم صاحب شهرة فى الخط العربى ، طبقت الآفاق ، وكان ينسخ بعض الكتب حيث لم تكن الطباعة بالحروف قد وجدت بعد ، ومما نسخه وأكثر من نسخه كتاب الصحاح للجوهرى ، وهو كتاب من كتب اللغة الضخمة الجيدة وكانت النسخة الواحدة منه تباع بمائة دينار من الذهب فى بغداد ، فاذا عرفنا أن ثمن الخروف كان لا يكاد يبلغ نصف دينار عرفنا ضخامة الثمن الذى كان يباع به هذا الكتاب •

لقد كان صاحب مدرسة فى الخط العربى ، ولذلك فان ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » يتحدث عنه فيقول : كتب عليه خلق كثير أى أخذوا فن الكتابة عنه ، ومدحه الشعراء بحسن الخط فقال أحدهم :

ذو يراع تخاف صولته الأسد
وتعنو له الكتائب دلا

واذا افتـرّ ثغـره عن ســواد
في بيـاض فالبيض والسمر خجـلى
مثـل وشي الرياض أو كنظيـم
الدر يزهى خطـا ولفظـا ونقـلا

أما ياقوت الثانى ، فشاعر شهير ، ومن شعره :

يصد اذا ما صد عن عينى السـكرى
ويمـزج دمعى هجـره بمـدامى
حيـاتى ومـوتى فى يديـه وجنتى
ونارى وريّى في الهـوى وأوامى
ومن وجنتيـه نار وجـدى وخصره
نحولى ومن سقم الجفون سـقامى

والثالث هو المعنى بهذا الحديث لأنه صاحب « معجم الأدباء » الذي جعلناه موضوع هذا الفصل • وقد ولد في بلاد الروم ونشأ بها ، وفى بعض الحروب بين المسلمين والروم وقع أسيرا فى يد المسلمين فكان أسره هـذا بداية حيـاة عظيمة من العلم والأدب والتصنيف •

وكان مملوكا لرجل بغدادى أصله من حمـاة ببـلاد

الشام ، اسمه عسكر الحموى وقد دفع عسكر بياقوت الى المعلمين فعلموه القراءة والكتابة وشيئا من النحو واللغة ، ثم اشتغل فى تجارة عسكر ، لكن العلم لم يزل يستهويه فكان يقرأ ويقرأ ثم لما مات عسكر وكان قد اعتقه قبل ذلك بسنوات انصرف ياقوت لمعالجة أمور نفسه ، فتاجر فى الكتب وأكثر من التنقل فى البلاد الاسلامية الواسعة الأرجاء فمن الشام الى العراق ، الى خراسان ، الى الخرطوم ، الى خوارزم ، وحين كان فى خوارزم صادفه وهو بها زحف التتار ، ففر هاربا وترك كل ما يملك سنة ٦١٦هـ وانظر الى عبارة ابن خلكان فى وصفه وهو على تلك الحال : فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه (أى فقير عريان لا يملك شيئا) وأعوزه دنىء المآكل وخشن الثياب وظل يتنقل شريدا طريدا فى البلاد الى أن وافاه أجله فى فندق بمدينة حلب .

كتاب معجم الأدباء يعتبر من آثار الترتيب العلمى والأدبى فى العصر العباسي الأخير ، وقد ألف هذا الكتاب في الربع الأول من القرن السابع بعد نضج الثقافة العربية وبلوغها أقصى غاياتها .

لياقوت ملكة فى التأليف ، وترتيب الكتب أثنى عليها

كثير من المؤرخين ونقدة الآداب ، وموضوعات مؤلفاته تدل على ملكة الجمع والتصنيف ، منها مثلا « معجم البلدان » و « معجم الشعراء » و « أخبار المتنبى » وله كتاب لطيف اسمه « عنوان كتاب الأغانى » فقد ألفه بعد أن قرأ كتاب الأغانى قراءة واعية مستوعية ، ولاحظ عليه عدة ملحوظات مهمة فقال : تأملت هذا الكتاب فوجدته يعد بشيء ولا يفى به في موضع كقوله فى أخبار أبى العتاهية ، وقد طالت أخباره هنا وسنذكر خبره مع عتبة فى موضع آخر ولم يفعل ، وقال فى موضع آخر « فى أخبار أبى نواس مع جنان » اذا كانت سائر أخباره قد تقدمت ، ولم يتقدم شيء منها ، والأصوات المـائة فى كتاب الأغـانى حصرها ياقوت فوجـدها تسعة وتسعين فقال : وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم • و «معجم الأدباء» موسوعة حافلة بتراجم أعلام الأدب واللغة والنحو والقراءات وأعيان الرواة ، والمحدثين ، ويقول المستشرق مرجليوث : أن معجم الأدباء يعين على اجراء تصحيحات فى مؤلفات عدة لكتاب الفهرست لابن النديم وكتاب اليتيمة للثعالبى •

الملاحظ أن لياقوت كتـابا اسمه « معجم الشعراء » ،

ولذلك رأينا أنه استبعد في كتابه « معجم الأدباء » الشعراء الذين لم يشتهروا بغير الشعر كأبي الطيب المتنبي مثلا والفئات المذكورة في الكتاب حددها ياقوت بنفسه في المقدمة فقال : « جمعت في هذا الكتاب ما وقع الي من أخبار النحويين ، واللغويين ، والقراء المشهورين ، والأخباريين ، والمؤرخين والوراقيين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمغنية وكل من صنف في الأدب تصنيفا أو جمع فيه تأليفا » .

ثم قال : ولم آل جهدا في اثبات الوفيات ، وتبيين المواليد ، والأوقات وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم والاخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم .

ثم قال: وقد حذفت الأسانيد الا ماقلّ رجاله وقرب مناله، وأثبت مواضع أخذي ومواطن نقلي .

معنى هذا أنه حذف ما لا فائدة منه من الأسانيد « عن فلان عن فلان » وأنه حدد خطة الكتاب في المقدمة أو خطبة الكتاب كما كان يسميها المؤلفون القدامى ، وأنه تحرى الدقة جهد الاستطاعة في التواريخ ، وأنه ذكر المؤلفات ، وذكر كذلك أمثلة لشعر الشاعر ونثر الناثر ، وأخيرا أثبت

المصادر والمراجع ليتمكن القراء من الرجوع الى الأصل كلما أرادوا ذلك •

وفى رأينا أن هذا الكتاب « معجم الأدباء لياقوت الحموى » موسوعة حافلة ، لكثير من أعلام الأدب العربى ، جمع لها المؤلف مادته من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ومن أفواه الرواة ومن تفاريق الكتب وما حصله فى أسفاره التى كانت ولا شك عاملا من عوامل اتساع ثقافته وتزايد معارفه ومعلوماته •

واذا كان لابد من اضافة الى ما تقدم عن هذا الكتاب فهى أنه لقى كثيرا من عناية المستشرقين فقام على الطبعتين الأوليين منه المستشرق مرجليوث وصدرت فى مصر منه طبعة ثالثة قام عليها الدكتور « أحمد فريد » بمعونة نفر من أعلام الأساتذة فى الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة •

آداب الكاتب .. لابن قتيبة

كتب أحد العلماء الأدباء من معاصرى الجاحظ يقول في حقه :

« انه كذاب يضع الحديث (لا يقصد أحاديث الرسول وانما أحاديث الأدب) وينصر الباطل ، وان كتبه ملئت بالمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ » . فمن هذا العالم الأديب الذى تحدث عن الجاحظ فاجترأ عليه هذا الاجتراء ؟ .

هذا العالم الأديب أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى ، من أعلام القرن الثالث الهجرى ، حيث ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين وتوفى سنة احدى وسبعين ومائتين وذكر أنه مات فجأة ، وقيل انه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ثم مات ، وابن قتيبة بحر من بحار العلوم فى هذه الأمة .

له مؤلفات كثيرة وتصانيفه كما يقول العلماء مفيدة كلها

منها أدب الكاتب وهو موضوع حديثنا ، ومنها كتاب « المعارف » ، وكتاب « غريب القرآن الكريم وغريب الحديث » ، و « عيون الأخبار » و « مشكل القرآن » و « مشكل الحديث » وغيرها وأصل أبيه من مرو بخراسان، لكن ابن قتيبة ولد ببغداد ، وهي يومئذ العاصمة السياسية والعلمية والثقافية للعالم العربى والعالم الاسلامى •

نشأ ببغداد وتثقف على أهلها وأخذ العلم عن رجالها حتى نضج فولى القضاء فى مدينة دينور « وهى مدينة فى بلاد الفرس قرب همذان » ولذلك نسب اليها فقيل الدينورى ، وله ابن هو القاضي (أبو جعفر أحمد بن قتيبة) الأديب وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره ، وتولى القضاء بمصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ويروون عنه أنه كان يجلس للدرس فيتحدث بكتب أبيه فى العلم واللغة والأدب حفظا ولم يكن معه كتاب ••• بل ان التاريخ ليذكر أن حفيده (عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله بن مسلم) انتقل الى مصر فسكنها وروى فيها للناس كتب جده رواية عن أبيه •••

لقد شهد لابن قتيبة بالعلم والفضل كثير من العلماء

الأعلام وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وهو يوازن بينه وبين ابن الانبارى « وليس ابن الانبارى بأعلم بمعانى القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك وان كان ابن الانبارى من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة » .

وقد اتفق العلماء على أن مصنفاته مفيدة ، وأنهـا عظيمة القدر ، جليلة النفع حتى كان أهل المغرب يتهمون من لم يكن فى بيته من تأليف ابن قتيبة شيء

وقد وجه بعض العلماء النقد الى بعض مؤلفاته فمثـلا قالوا عن « أدب الـكاتب » انه خطبـة بلا كـتاب ، وأن « اصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة لكن ابن خلـكان دافع عنه بحرارة فقال : هـذا فيه نوع تعصب عليـه ، فان أدب الكاتب قد حوى من كل شيء وهو مفنن وما أظنه حملهم على هذا القول الا أن الخطبـة طويلة والاصـلاح بغـير خطبـة .

هذا النقد الذى وجهه بعض الناس الى أدب الـكاتب لابن قتيبة فيه مبالغة ضخمة تخرج مخرج الكذب فان كتابا فى نحو خمسمائة صفحة لا يستكثر عليه أن تكون مقدمته

حوالى عشرين صفحة ... ومن جهة أخرى فان الـكتاب معدود من دواوين الأدب الأربعة كما ذكر ابن خلدون ، ولو أنه كان كما ذكر هؤلاء النقاد لما نشط له العلماء بالشرح والتفسير والعناية كما صنع ابن السيد البطليموسي فى كتاب سماه الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب وكما فعل « أبو منصور الجواليقى » و « سليمان بن محمد الزهراوى » .

ان من تمام التعريف بابن قتيبة ان نذكر انه نشط لمدافعة الشعوبية وهو مذهب شاع فى عصره ، فحواه تفضيل غير العرب على العرب ، وقد ألف ابن قتيبة فى ذلك كتابا سماه « فضل العرب على العجم » أو كتاب العرب وعلومها وقد قال في مستهله : « جعلنا الله واياك على النعم شاكرين وعند المحن والبلوى صابرين ، وبالقسم من عطائه راضين ، وأعاذنا من فتنة العصبية وحمية الجاهلية ، وتحامل الشعوبية فانها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو فى القول وتسرف فى الذم وتبهت بالكذب وتكابر العيان » .

ثم نأتى بعد ذلك الى كتاب « أدب الكاتب » أو « أدب الكتاب » كما جاء في بعض الروايات والمصادر ، وقد ألف

هذا الكتاب للوزير أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير الدولة العباسية لذلك العهد ، وقد ذكره فى المقدمة وأثنى عليه ثناء عظيما . وقد قسم ابن قتيبة هذا المصنف أقساما وسمى كل قسم منها كتابا ، وتلك الكتب هى : كتاب المعرفة ، وكتاب تقويم اليد ، وكتاب تقويم اللسان ، وكتاب الأبنية ، أما كتاب المعرفة ، فقد قسمه أبوابا ، منها باب معرفة ما فى السماء والنجوم والأزمان والرياح ، وباب النبات وباب معرفة ما فى الخيل . لكن ألطف هذه الأبواب جميعا هو باب أصول أسماء الناس ما سمى منهم باسم النبات كثمامة وطلحة وحنظلة وحمزة وقتادة وما سمى منهم بأسماء الطير كالقطامى واليعقوب والهيثم وعكرمة والسعدانة وما سمى منهم بأسماء السباع كأوس وعنبس وحيدرة وأسامة وثعلبة وهرثمة وكلثوم . وما سمى منهم بأسماء الهوام كالحنش والأرقم وجندب والفرعة .

والكتاب معجم للألفاظ أحيانا حين يذكر أسماء المتضادين ككلمة الجون التى تقع على الأبيض وعلى الأسود والصريم الذى يقع على الليل والصبح وهو أحيانا كتاب صرف ونحو كتاب « ما » اذا اتصلت كقوله : تقول ادع بم شئت اذا أردت سل عن أى شيء شئت نقصت الألف ،

وان أردت سل عن الذى أحببت أتممت الألف فقلت ادع بما بدا لك .

ولعل خطبة الكتاب التى استطالها بعض الناس تشرح مقصده منه ،فهو يقول : عملت لمغفل التأديب كتبا خفافا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل أفيد به ما ضل من المعرفة .. ثم قال :

وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ومن الكتابة الا بالاسم ولم يتقدم من الاداة الا بالقلم والدواة ولكنها لمن شدا شيئا من الاعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئا من التصاريف والأبنية .

ان ابن قتيبة فى هذه المقدمة الطويلة يطلب من الكاتب ما كانت تطلبه العجم منه فقد قال : كانت العجم تقول : من لم يكن عالما باجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوى ومجارى الايام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصا فى حال كتابته .

الأمالى .. لأبي علي القالي

فى سنة خمس وثلاثمائة هجرية كانت قافلة من قوافل المسافرين تدنو من بغداد قادمة من مدينة « قالى قلا » من أعمال دياربكر ولم يكن المسافرون كلهم من هـــذه المدينة بل انضم بعضهم اليها فى الطـريق وبعضهم كان من مـــدن وقرى قريبة من هذه المدينة •

وكان بين المسافرين فى هذه القافلة شاب عالم أو طالب للعلم اسمه ، اسماعيل بن القاسم ، وكنيتـــه أبو علي ، من مواليد بلد يسمى « منازجرد » القريبة من قالى قلا ، وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة • لكنه قبل أن يدخل بغداد بسنتين ذهب الى الموصل وأقام بها يسمع من علمائها ويأخذ عنهم وهنـــاك قرأ الحـديث الشريف على أبى يعلى الموصلى ، وحين دخل بغداد عرف بين الناس بأنه « القالى » نسبة الى « قالى قلا » ولزمته هذه التسمية فى حياته وبعد مماته •

وفي بغداد تعلّم وعلّم وكتب الحديث ، وعلا صيته فى الآفاق ، وبقى بها نحو ثلاث وعشرين سنة حين أراد أن يذهب الى الاندلس فذهب اليها تسبقه سمعة علمية واسم ضخم فى علوم اللغة والأدب ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة فى موكب ضخم يحف به العلماء والأدباء وأهل الرأى والفكر .

هذا هو أبو علي القالى ، اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون اللغوى العالم الأديب صاحب كتاب « الأمالى » الذى يعد من أصول كتب الادب واللغة . وصاحب كتب أخرى عظيمة منها كتاب « البارع » فى اللغة الذى بناه على حروف المعجم وكتاب « المقصور والممدود » وكتاب « فى الابل ونتاجها » وكتاب « مقاتل الفرسان » وله كتاب شرح فيه القصائد المعلقات .

وكتاب « الأمالى » الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن أملاه القالى فى قرطبة على نفر من تلاميذه بناء على رغبة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر وولى عهده ، ويقال ان الحكم هو الذى كاتبه ورغّبه في القدوم الى الأندلس ، وكان قبل ولايته الأمر وبعد توليه ينشّطه على التأليف

بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط فى التكريم ، وحسن التقدير .

ويقول « أبو علي » فى المقدمة أنه قد أملى هذا الكتاب فى أيام الأخمسة بقرطبة ، وفى المسجد الكبير ، مما يمكن أن نسميه « أحاديث الخميس » اذ كان يمليها كل يوم خميس بالمسجد .

ويذكر كذلك في المقدمة أنه ضمّنه فنونا من الأخبار ، وضروبا من الأشعار ، وأنواعا من الامثال ، وغرائب من اللغات ثم يقول : على أنى لم أذكر فيه بابا من اللغة الا أشبعته ، ولا ضربا من الشعر الا اخترته ، ولا فنا من الخبر الا انتخلته ، ولا نوعا من المعانى والمثل الا استجدته ، ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم على أننى أوردت فيه من الابدال ما لم يورده أحد ، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر ، ليكون الكتاب الذى استنبطه احسان الخليفة جامعا ، والديوان الذى ذكر فيه اسم الامام كاملا .

وهذا الكلام الذى قاله أبو علي فى المقدمة ألزم به نفسه فى تأليف الكتاب .

هذه الفقرات التى وردت فى مقدمة الكتاب تبين شيئين : أولهما أن الكتاب قد ألف ردا على احسان الخليفة اليـه ، وعطفه عليه ، والثانى أنه رسم لنفسه خطة تأليف واضحة فاذا كانت هـذه المقدمة قد ألفت بعد تمام الكتاب فانه قد أبرز أهم الموضوعات التى عالجها فى صفحـاته ، وكتاب الأمالى من جزءين وله ذيل وقد ألحق أبو علي به كتابا آخر من جنسه هو كتاب « النوادر » بل ان بعض العلماء يسمى الكتاب كله كتاب النوادر كخير الدين الزركلى الذى يقول :

« أشهر تصانيفه كتاب النوادر ويسمى أمالى القالى في الأخبار والاشعار » .

وهذا الكتاب مجموعة من النوادر والأشعار والأخبار ومباحث اللغة التى كانت تكـّون في مجموعها ما كان يسميه الناس فى ذلك العصر « الأدب » » وعارفها والعالم بها كانوا يسمونه أحيانا عالما وأحيانا أديبا ، لأنه كان يعلم المادة التى يؤدب بها الصبيان أو يعلمهم فاذا ألقينـا نظرة على كتاب الرشيد للأحمر مؤدب أولاده وجدنا أنه يحدد له منهجا لا يختلف فى اجماله عن المادة التى يضمهـا بين دفتيـه كتاب الأمالى .

ولتقريب مادة هـذا الـكتاب الى الأذهان نذكر فقرة واحدة من الكتاب لتمثل هذه المادة يقول القـالى بعد ذكر اسناده ما رواه : « لما قتل مصعب بن الزبير دخـل عبـد الملك بن مروان الـكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيهـا الناس ان الحرب صعبـة مرة وان السلم أمن ومسرة وقد زينتنا الحرب وزيناها فعرفناها والفناها فنحن بنـوها وهى أمنا أيها الناس فاستقيموا على سبل الهدى ودعوا الأهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعلمون أعمـالهم ، ولا أظنـكم تزدادون بعد الموعظة الا شرا ولن نزداد بعد الأعذار اليكم والحجة عليكم الا عقوبة فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد فانما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

من يصـل نارى بلا ذنب ولا ترة
يصـلى بنـار كريم غير غـدار

أنا النـذير لـكم منى مجـاهدة
كى لا ألام على نهـي وانـذار

فان عصيتم مقــالى اليوم فاعترفوا
ان سوف تلقون خزيا ظاهر العــار

لترجــعن أحـــاديثــا ملعنـــة
لهو المقيم ولهو المــدلج الســارى

من كان فى نفسه حوجــاء يطلبهــا
منى فــانى له رهن بأصحـــــار

أقيم عوجتــه ان كان ذا عـــوج
كما يقــوم جزع النبعــة البــارى

وصــاحب الوتر ليس الدهر مدركه
عنـــدى ، وانى لــدراك بأوتــار

وبعد أن روى أبو علي نص الخطبة بنثرها وشعرها أخذ يشرح المفردات شرح المدرس القدير فشرح « زينتنا » وشرح الادلاج والوتر أى الثأر وأتى فى ذلك باللغــات المختلفــة مستشهدا بشعر العرب ونثرهم • وفى الكتاب كذلك نحو وصرف ولغة وقراءات • وشذرات من حكم العرب وأمثالها وقصائد كاملة وغير ذلك •

نفح الطيب .. للمقّري

اذا أردت أن تعرف شيئا عن أية ناحية أندلسية سياسية كانت أو اجتماعية أو أدبية فلن تجد مثل كتاب نفح الطيب ، فانه موسوعة كاملة عن الاندلس يترجم لساستها وأدبائها وبلدانها وأنهارها ووديانها ، ويروى نوادر الاندلسين وطرائف حياتها ويفيض فى ذلك افاضة كاملة •

وقد نالت الأندلس ــ جنة الاسلام الضائعة ــ من عناية المقرى واهتمامه ما جعلها تبرز فى أذهان المسلمين وتحسب من أملاكهم الفكرية حتى اليوم وان حكمها سواهم منذ قرون طوال •

فمن هو المقرى وما كتابه نفح الطيب ؟

المقرى : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقرى ولد بتلسان وهى مدينة ببلاد المغرب الأوسط . ونشأ بها وحفظ القرآن وقرأ صحيح البخارى سبع مرات

على عمه الشيخ الجليل ابن عثمان سعيد ابن أحمد المقرى مفتى تلمسان .

ووفد على مصر ، بعد أن أدى فريضة الحج فى سنة ١٠٢٨هـ ، وتزوج ، ويظهر أنه لم يجد فى مصر ما كان يؤمل من منصب أو جاه الأمر الذى دعاه الى أن يكثر التمثيل ببيتين لابن الحاجب هما :

يا أهل مصر وجدت أيديكم
في بذلها بالسخاء منقبضه

لما عدمت القرى بأرضكم
أكلت كتبى كأننى أرضه

كما دعاه ذلك الى أن ينظم شعرا يقول فيه :

تركت رسوم عزى فى بلادى
وصرت بمصر منسي الرسوم

ونفسى عفتها بالذل فيها
وقلت لها عن العلياء صومى

الى عزم كحد السيوف ماض
ولكن الليالى من خصومى

وخرج الى الشام بعد عام ، ثم رجع الى القاهرة ومضى منها الى مكة وأملى هناك دروسا عديدة ، ووفد على المدينة المنورة وأملى الحديث الشريف فى المسجد النبوى على طلاب العلم ثم عاد الى مصر بعد نحو عشر سنوات سنة ١٠٣٩هـ وسلك منها الى الشام فلقى حفاوة واحتراما وبعد مدة عاد الى مصر وفاجأه الموت بها فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ ودفن بمقبرة المجاورين المعروفة بالقاهرة .

والمقرى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وآخرها راء مهملة نسبة الى (مقرة) بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة قرية من قرى تلسمان واليها نسبة آبائه .

كان المقرى وهو بالشام يكثر من الحديث عن تلك العلاقات الوثيقة التى تربط الأندلس بالشام فان فاتحى الأندلس هم أهل الشام ، وأكثر أهل الاندلس من عرب الشام ، وان غرناطة بها أهل دمشق وسموها بأسمها لشبهها فى النهر والقصر . فطلب اليه رجل سماه المقرى مرة المولى أحمد الشاهينى ، وسماه مرة أخرى أحمد أفندى بن شاهين أن يؤلف عن الأندلس كتابا والح عليه فى ذلك وذكره المرة بعد المرة وفى ذلك يقول المقرى فى المقدمة :

« ويراعى أننا حذفنا العبارة المكررة والأطناب الذى لا يخل حذفه بالمعنى » ويقول :

« وكنا فى خلال الاقامة بدمشق كثيرا ما ننظم فى سلك المذاكرة درر الألفاظ الملقوطة فينجز بنا الكلام ، والحديث ذو شجون ، الى ذكر البلاد الاندلسية ، فصرت أورد من بدائع بلغائها وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ما تثيره المناسبة وتقتضيه .. فطلب منى المولى « أحمد أفندى ابن شاهين » أن أتصدى للتعريف بلسان الدين بن الخطيب فى مصنف ، ولم يجعل لى فسحة ولا مندوحة ثم انى لما تكرر علي فى هذا الغرض الالحاح ، عزمت على الاجابة فوعدته بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية » ثم يقول .. انى شرعت فى المطلوب .. : واضربت برهة .. فجاءتنى من المولى المذكور رسالة دلت على أنه لم يكن عن انجاز الوعد متجانفا ، وحصل التصميم على التكميل دعيا لهذا الولى الحميم ، ولم يكن جمعى لهذا التأليف لرفد استهديه أو عرض نائل استجديه ، بل لحق ود أؤديه » .

كان اسم الكتاب أولا : « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » .

ثم حدث للمؤلف عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة وبعض مفاخرها الباسقة فكان من الضرورى تفسير اسم الكتاب تبعا لذلك ، وقد غيره المؤلف فسماه (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب) وعلى ذلك فالكتاب موضوعه يتعلق بالاندلس ومفاخرها ولسان الدين ابن الخطيب وترجمة حاله ، وشعره ونثره وسائر ما يتعلق به ، والمؤلف ذو أسلوب من أساليب الأطناب والتطويل والحشو ، فان مقدمة الكتاب تقع فى نحو ٢٥٧ صفحة في وصف تجواله واستقراره بين الشام والحجاز ومصر وفيها يذكر سبب تأليف الكتاب على النحو الذى أوردناه وقد قسم المؤلف كتابه قسمين تبعا لموضوعه : القسم الأول فيما يتعلق بالاندلس وجملته فى ثمانية أبواب بين وصف لجزيرة الاندلس ـ هكذا تجوزوا فى تسميتها مع أنها ليست جزيرة بالمعنى الجغرافي الصحيح ـ ثم سبب تسميتها بذلك وتحديدها : وفتحها وخص قرطبة بالباب الرابع ، وجعل الباب الخامس لرجال الاندلس، والسادس للوافدين عليها والسابع في توقد أذهان الاندلسيين وأحوالهم والثامن فى تغلب الأعداء عليها .

والقسم الثاني من الكتاب خاص بلسان الدين ابن الخطيب ، ومع انه خصص هذا القسم الثانى كله له الا انه قال فى المقدمة : ولم اخل باقى القسم الاول من كلام للسان الدين بن الخطيب مع ان القسم الثانى بذلك قد استقل • والقسم الثانى من ثمانية ابواب الاول فى اوليته لسان الدين واسلافه والثانى فى نشأته وحياته ، والثالث فى مشايخه واساتذته والرابع فى مخاطبات الملوك والاكابر الموجهة الى حضرته والخامس فى نثره ونظمه وازجاله وموشحاته والسادس فى مصنفاته ما كمل منها وما اخترمته دون اتمامه المنون والسابع فى تلامذته والثامن في اولاده •

وقد توهم المؤلف انه لم يسبق الى مثله في بابه ونقول توهم لان هذه عبارته « وقد توهمت انى لم اسبق الى مثله في بابه اذ لم اقف له على نظير يتعلق بأسبابه » والواقع ان ترجمة الاندلس هذه الترجمة الوافية الشافية من جميع الوجوه لم توجد في كتاب قبل هذا الكتاب وان كتابة المؤلف لا تعدو أن تكون جمعا لما تفرق في كتب كثيرة وتواليف متعددة •

اذا اردنا ان تتحدث عن تاريــخ حياة هــذا الكتاب قلنا انه ألف في سنة ١٠٣٨هـ واضيفت اليه اشياء في السنة التى تلتها ١٠٣٩ هـ كما ذكر المؤلف ، وقد اختصره عالــم اســمه الجزائرلي ومن هــذا المختصر نسخــة في المتحف البريطاني وقد لخصه ونقله الى الانجليزية باسكوال ونشره فى لندن فى مجلدين بين سنتى ١٨٤٠ ، ١٨٤٣م ثم طبع فى مصر سنة ١٢٧٩ هـ في اربعة مجلدات تحتوي على ٢٢٠٠ صحيفة كبيرة ، وطبع قبل ذلك في لندن سنة ١٨٦١ م واخيرا طبع بعضه في مصر في الاربعينات من هــذا القرن •

لقد نبه المؤلف الى فائدة كتابه في اكثر من موضع في المقــدمة من ذلك قوله : واعلم ان هــذا الــكتاب معين لصاحب الشعر ولمن يعانى الانشاء والنثر من البيان والسحر وفيه من الوعظ والاعتبار مالم ينكره المنصف عند الاختيار وكفاه انه لم ير مثله فى فنه فيما علمت ولا اقوله تزكية له ويعلم الله انى تبرأت من هــذا العارض ومنه سلمت •

الأغاني . للأصبهاني

يقـــول ياقوت فى معجم الادباء متحدثا عن ابى الفرج صاحب الاغانى « العلامة نسابة » الاخبارى الحفظـــة ، الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراية لا اعلم لاحـــد احسن من تصانيفه في فنه وحسن استيعـــاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مـــع ذلك شاعرا ، ونقل ابن خلكـــان عن التنوخي قوله عن ابى الفرج كان يحفظ من الشعر والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لـــم ارقط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو ، والخرافات والسير والمغازى ، ومن آلة المنادمة شـــيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة وتتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك • وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء الشعراء •

هـــذا هو ابو الفرج على بن الحسين بن محمد ينتهى نسبة الى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهو اذن

قرشي ، وكان اصبهـــاني الاصل بغدادي المولد ، والنشأة ولد في سنة مائتين واربع وثمانين هجرية ، ومن اســـاتذة أبي بكر بن دريد ، وابن الانباري ، وغيرهمـــا وتوفي سنة ثلثمائة وسبع وخمسين ، وهي السنة التي مات فيها اديبان كبيران وثلاثة ملوك عظـــام اما الملوك فهم : سيف الدولة ممدوح المتنبي ، ومعز الدولة البويهي ، وكافور • وامـــا الاديبان فهما الاصبهاني ، وابو علي القالي صاحب الامالي •

وكان الاصبهاني كثير التأليف والتصنيف لـــه الاغاني الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وله كتاب «القيان» وكتاب «الاماء الشواعر» وكتاب «دعوة الاطباء» وكتاب « مقاتل الطالبين» وقد اتصل بالملوك الامويين بالاندلس ، وصنف لهم كتبا قيمة ثم سيرها اليهم سرا ، وجاء الانعام منهم سرا كذلك ، ومن هذه الكتب كتاب «نسب بنى شمس » وكتاب «ايام العرب» ضمنه الفا وسبعمائة يوم من ايامهم ، وكتاب «التعديل والانتصاف في مآثر العرب ومثـــالبها» • وكتب اخرى كثيرة•ومع عظمة ابى الفرج العلمية والادبية فقد رووا انه كان لايعنى بثيابه ولباسه،فلايخلعها الابعد ابلائها وتمزقها، ولا يعرف لها غسلا ومما قالوه انه كان نديما للوزير المهلبي ،

وكان الوزير يحبه ويصبر على كل صعب من امره في مجالسته ومؤاكلته ومشاربته لوساخة هيئته وثيابه ونعله •

وكتابه « الأغانى » هو اعظم كتبه باتفاق الآراء صنفه كما يقولون في نحو خمسين سنة وكتبه مرة واحدة فى عمره وهي النسخة التي أهـداها الى سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب فاعطاه في مقابلها الف دينار من الذهب واعتذر اليـه •

ومما رووه ان الصاحب بن عباد الاديب الوزير المعروف، **كان فى اسفاره** وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الادب ليطالعها ، فلما وصل اليـه كتاب الاغانى لم يكن يستصحب سواه • استغناء به عنها • وانه كان جليسه الذى يأتى اليه وحديثه الذى يرتاح نحوه •

كتاب الاغانى موسوعة للادب العربي واخبار العرب وايامها اداره على اصل موسيقى ، وهو المائة صوت التى اختارها من اصوات المغنيين وبداهـا بالاصوات الثلاثة المختارة للرشيد فترجم لشعرائهـا وهم : « ابو قطيفة » • « عمر ابن ابى ربيعة » و « نصيب » ••• الخ ومادة هذا الكتاب العظيم تتمثل في ما ترجمه صاحبه لاكثر شعراء العرب

من جاهليين واسلاميين ومحدثين كما ترجم لكل من عرف اسمه من المغنيين في الدولتين الاموية والعباسية ، وبث في ذلك ايام العرب ووقائعها وقصص الملوك والخلفاء وتستطيع من الاشعار التي رواها في صفحات كتابه الفذ ان ترسم صورا صحيحة صادقة لعصور الادب المختلفة لكن ابا الفرج لم يتأنق في ترتيب كتابه اخذا بمذهبه في ثيابه ونعله فانت لا تستطيع ان تظفر بترتيب مفيد للشعراء والمغنيين ، وعلى سبيل المثال فان ابا الفرج بدأ بأبي قطيفة الشاعر ، ثم بعمر ابن ابي ربيعة ونصيب ولا يمكن ان يجمع هولاء تصنيف واحد .

ولهذا لا نجده يصنف الشعراء ، ولا نجده يصنف المغنيين ، ونثر اخباره واشعاره ونوادره نثرا على غير نظام كما يقول الشيخ « محمد الخضرى » وكان ابو الفرج يتحيز للغناء فهو يروى الاشعار كما لحنها ، وتغنى بها المغنون لا كما نظمها الشعراء في كثير من الحالات .

ومثل ذلك وغيره من مشاق استيعاب مادة الاغانى هو الذى حفز بعض العلماء الى اختصار الكتاب وتهذيبه بل ان ذلك هو ما أحسّ به ابو الفرج نفسه وتحدث عنه فقد ذكروا ان له كتابا اسمه « مجرد الاغانى » .

لقد عمد الشيخ « محمد الخضرى » الى كتاب الاغانى فهـذبه وتمثل هـذا التهذيب فى وضع تصنيف للشعراء والمغنيين وجعل الكتاب على قسمين : الاول فيه اخبار الشعراء ومـا قرضوا من الشعر والثانى فيه اخبار المغنيين وما وضعوا من الالحان والاصوات ثم هو قد رتب الشعراء ثلاث طبقات الاولى طبقة الشعراء الجاهليين ، وقسمهم على حسب قبائلهم ، وذكر من بينهم أمرأ لقيس والشنفرى وكعب بن مالك والمرقش ، والطبقة الثانية طبقة الشعراء الاسلاميين وذكر من بينهم الاخطل والفرزدق وجريرا والطبقة الثالثة طبقة الشعر المحدثين وقد ذكر منهم مسلم ابن الوليد والضحاك وابا العتاهية وابا تمام .

اما الشعراء المخضرمون فقد ذكر مخضرمى الجاهلية والاسلام مع الجاهلين وذكر مخضرمى الاموية والعباسية مع الامويين .

وكان من جهد الخضرى اتمام بعض القصائد والابيات وحذف الفاحش من الكلام مما لا يقبله العصر وان كانت الروح العلمية تأبى ذلك . كذلك اسقط الخضرى مالا فائدة منه من اسماء الرواة والاسانيد . والكتاب الأصلي يقع فى

واحد وعشرين جزءا اختصره الشيخ الخضرى الى عشرة أجزاء من قطع متوسط .

لقد كان ابو الفرج امويا كما عرفنا ومع ذلك فقد كان شيعي الهوى ، وهو شأن عجب له مؤرخوه . كما كان شاعرا يستطاب وصفه ويخشى هجاؤه ، ومن احسن شعره قصيدة شكا من فأر قرض ثيابه ووصف فيها قطا استعان به على هذا الفأر يقول فيها ابو الفرج :ـ

خلقت للفساد مذ خلق الخلق
وللعيث والاذى والخراب
آلفات قرض الثياب وقد يعدل
قرض القلوب قرض الثياب
زال همى منهن أزرق تركى
السبالين انمر الجلباب
ناصب طرفه ازاء الزوايا
وازاء السقوف والابواب
ينتضى الظفر حين يظفر للصيد
والا فظفره فى قراب
حبذا ذاك صاحبا هو فى الصحبة
أوفى من اكثر الأصحاب

أساس البلاغة .. للزمخشري

أساس البلاغة نوع من معاجم اللغة العربية ، يعنى أعظم العناية بتبين الحقيقة من المجاز ، يهتم ـ كما يقول المرحوم الاستاذ امين الخولى بأثر الاستعمال فى حالة الكلمة ويعطينا مواد لمعرفة استعمال الكلمات حتى القرن السادس ـ وهو العصر الذى ألف فيه معجم اساس البلاغة للزمخشرى ويعطينا كذلك شيئا عن ايحاء الكلمة ووقعها على نفس سامعها فان الدلالة المعجمية المجردة ـ كما فى المعاجم الأخرى ـ لا تقدم الى الادباء واصحاب فن القول شيئا يذكر .

وصاحبه هو (جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ابو القاسم) من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب او كما يتحدثون عنه : استاذ الدنيا وشيخ العرب والعجم وفخر خوارزم ، ولد فى زمخشر واليها نسب ، وهى احدى قرى خوارزم ، وسافر الى مكة المكرمة فجاور بها زمنا ، وبذلك لقبوه جار الله أو هو قد لقب نفسه بذلك تشرفا

بجيرة البيت العتيق فلحق به هـذا الاسم واشتهر به وتنقل في البلدان ، ثم عاد الى الجرجانية وتوفي بها وذكـر ابن خلكان ان احدى رجليه كانت ساقطة ، ولذلك كان يمشي بمعونة الخشب ويسبل عليه الثياب .

وسبب ذلك كما يذكرون انه كان في بعض رحلاته ببلاد خوارزم فأصابة ثلج كثير وبرد شديد في الطريق ، فسقطت منه رجله وانه كان بيده وثيقة تتضمن شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من ان يظن من لم يعلم صورة الحال انها قطعت لجريمة وذكر ابن خلكان ايضا ان ذلك يحدث للناس كثيرا في خوارزم ، وانه شاهد خلقا كثيرا ممن سقطت اطرافهم لهـذا السبب وفي بعض المصادر ان الزمخشري سئل عن ذلك فقال ان سببه دعاء الوالدة ويتحدث عن ذلك يقول : اني كنت في صباي امسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي فادركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله فتألمت والدتي لذلك وقالت : قطع الله منك ما قطعت منه ، فلما وصلت الى سن الطلب ـ والحديث للزمخشري ـ رحلت الى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي وعملت على عملا

اوجب قطعهـا والله اعلم بالصحة .

ولكن هـذه العاهة الضخمة فى بدنه لم تمنعه من ان يكون علامة عصره ومفرد زمانه ولغوى دهره فلهمؤلفات كثيرة منها « أساس البلاغة » وهو المعجم الذى نحن بصدده ومنهـا « المفصل » في النحو ، وهو غاية الغايات فيه ، ومنها « الكشاف » في التفسير ويستشهد فيه كثيرا بالشعر وقـد استطاع بعض الباحثين ان يؤلف من الشواهـد الشعرية للكشاف مجموعة ضخمة من الشعر ، وقرظه ابن خلـكان فقال:لم يصنف قبله مثله ، وللزمخشرى كتاب «ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض » وله «المفرد والمركب» في العربية وله «المحاجاة بالمسائل النحوية»، وله «المستقصى فى أمثال العرب» و «القسطاس» فى العروض و «المنهاج» في الاصول وكتب كثيرة اخرى تبحث فى كل فن وعلم كان معروفا فى ايام الزمخشرى ، ومعنى ذلك ان ابا القاسـم الزمخشرى كان دائرة معارف وموسوعة تمثل العلم في القرن السادس الهجرى لانه ولد في عام سبع وستين واربعمائة وتوفي عام ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة وللزمخشرى شعر بل ان بعض المصادر قـد ذكر ان لـه ديوانا من الشعر ولكنه لا يزال مخطوطا ، ويغلب على شعره الطابع الذى يغلب على

شعر العلماء ومن ذلك ما رثى بــه الزمخشرى استاذا لــه اسمه ابو مضر حيث يقول :

وقــائــلة مــا هــذه الدرر التى
تساقط من عينيك : سمطين سمطينِ

فقلت هو الدر الذى كان قد حشا
ابو مضر اذنى تســاقط من عينى

ويظن بعض الباحثين ان الابيات التى اوردها في الكشاف عند تفسير قوله تعالى : (ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ــ يظن ان هذه الابيات له ويقول فيها :

يامن يرى مد البعوض جناحهــــا
في ظلمــة الليــل البهيــم الاليل

ويرى عروق نياطهــا في نحرهــــا
والمــخ في تلك العظــام النحــل

اغفــر لعبــد تــاب من فرطاتــه
مــاكــان منــه في الزمــان الاول

قالوا واوصى الزمخشرى ان تكتب هذه الابيات على لوح قبره •

يذكر الزمخشرى في مقدمة كتابه اساس البلاغة ان خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى تحت استعمالات المعلقين او ماجاز وقوعه فيها وانطوى تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن ولا تنقبض عنها الا لسن ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والترصيف بسوق الكلمات متناسقة لا مفرقة بددا ومتناظمة لا طرائق قددا ، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية الى مراشد حر المنطق الدالة على ضالة المنطيق المفلق ومنها ــ اي من خصائص اساس البلاغة تأسيس قوانين الخطاب والكلام الفصيح بافراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح •

ثم يقول الزمخشرى فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الاعراب الذى هو ميزان اوضاع العربية ومقياسها ومعيار حكمة المواضع وقسطاسها واصاب ذروا (اى شيئا قليلا) من علم المعانى ، وحظي برش من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة

سليمة فحل نثره وجزل شعره •

نسجل هنا ان الزمخشرى يتحدث عن الموهبة كشرط اساسي ليكون الانسان اديبا : شاعرا أو ناثرا •

وقـد يكون من الملائم ان نذكر ان اساس البلاغـة مرتب باعتبار الحرف الاول مع الثاني وفقا لترتيب الحروف العربية •

أ ب ب • أ ب ر • أ ب س وهكذا وقـد يكون من الملائم كذلك ان نذكر مثلا من الكتاب يدل عليه •

مادة اخذ : ما انت الا اخاذ نباذ لمن يأخذ الشيء حريصا عليه ثم ينبذه سريعا وفلان اخيذ في يد العدو وهـو اسير فتنة واخيذ محنة •

وذهبوا ومن أخذ اخـذهم • ولو كنت منـا لأخذت بأخذنا أي بطريقتنا وشكلنا ؟

لسان العرب .. لابن منظور

العرب اسبق الامم الى وضع المعاجم اللغوية ، ونريد بالمعاجم اللغوية تلك الكتب التى ترتب فيهـا الالفاظ على حروف المعجم ، او على المعانى المتشابهة او المتقاربة •

وقد كان رواة اللغة كالاصمعى وابى عبيدة وغيرهمـا يروون ما يسمعونه او يأخـذونه عمن سمعـه ويدونونه او ينقلونه وكان من منقولاتهم ومروياتهـم اشعار العرب واخبارهم وامثالهم ، والفاظهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، دونوا ذلك أولا فى كتب يستقل كل كتاب منها بموضوع ككتاب الابل وكتاب الخيـل والنبات والنخيل للأصمعي وكتاب اللبن وكتاب المطر لابى زيد الانصارى ونحوهمـا •

لكن أول من رتب الفاظ اللغة ترتيبا متفقا مـع الحروف الابجدية هـو الخليل بن احمد الفراهيدى البصرى اذ الف في ذلك كتابا اسمه « كتاب العين » وقد رتب على حسب مخارج الحروف من حلق المتكلم فبدأ بحرف العين لانهـا

ابرز الحروف الحلقية .

وقال احد العلماء : ابدع الخليل بن احمد بدائع لم يسبق اليها فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب العين فانه هو الذى رتب ابوابه وتوفي قبل ان يحشوه .

وعلى ذلك فان كتاب العين للخليل بن أحمد هو أول معجم لغوى في اللغة العربية ، بل هو أول معجم لغوى في العالم .

وتوالى بعد الخليل المتوفي سنة ١٧٠هـ ظهور المعاجم اللغوية العربية فظهر بعده معجم اسمه « الجمهرة » لابن دريد المتوفي سنة ٣٢١هـ ثم « البارع » لأبى عليّ القالى ، وتوالى بعد ذلك ظهور المعاجم كالتهذيب للازهرى والصحاح للجوهرى ، والمحكم والمخصص لابن سيده والعباب للصاغانى وغيرها .

وحديثنا هنا حول « لسان العرب » ونريد أن نمهد بين يدى كلامنا بكلمة عن تنظيم المعاجم ، فالمعاجم أنواع كثيرة منها نوع يرتب على حسب ترتيب الالفاظ والمفردات ونوع يرتب على حسب معانى الالفاظ والمفردات ، وقواميس المعانى

كثيرة ومشهورة منها مثــلا : « المخصص » لابن سيده « وفقه اللغة » للثعالبى و « الافصاح » للصعيدى فهذه تعنى بجمع المعانى فهى تتحدث مثلا عن اللسان فتأتى بكل الالفاظ التى تتعلق به في موضوع واحد مهما اختلفت أوائلها أو أواخرها وتتحدث عن النبات فتأتى بكل الألفاظ التى تدور في فلكه ، وهكذا المعانى مرتبة بحيث يسهل الرجوع اليها ، فاذا أردنا مثلا معرفة أسماء أوقات النهار رجعنا الى باب الزمن ، ومثل هذه المعاجم تعين المترجمين والباحثين لمعان يعرفونها عن مفردات عربية تدل عليها .

أما معانى الالفاظ فهى الأخرى تنقسم أقساما حسب ترتيبها ، فمنها ما يعتد بالحرف الأول من الكلمة فكلمة شمس في باب الشين وكلمة فأس في باب الفاء ، ومنها ما يعتد بالحرف الأخير من الكلمة فكلمة شمس وفأس في باب واحد هو باب السين .

وهناك معاجم الفاظ تختص بالجانب البلاغى فتذكر اللفظة بين عبارتها وتذكر دلالتها ، وذلك كأساس البلاغة للزمخشرى وقد رتبه برعاية حروف أوائل الكلمات .

ومعجم « لسان العرب » معجم ألفاظ ، رتبه صاحبه

برعاية الحروف الأخيرة من الكلمات فالكلمات شمل وجبل وقتل في با بواحد ، هو باب اللام ، ولكن كل باب ينقسم الى فصول يراعى في ترتيبها أوائل الكلمات فكلمة شمل في باب اللام فصل الشين ، وكلمة جبل في باب اللام فصل الجيم ، وهكذا ..

والفرق بين اللسان والمخصص لابن سيده انك تعرف من المخصص اللفظ والألفاظ لمعنى معروف أما لسان العرب فانك تعرف منه المعنى أو المعانى للفظ معروف فالألوان مثلا تجدها في المخصص في باب واحد أما اللسان فانك تجد الأحمر في باب الراء فصل الحاء والأبيض في باب الضاد فصل الباء .

ان لسان العرب ليس تفسيرا مجردا للكلمات ولكنه يحفل بتفسير قرآن ، وحديث وفقه وشعر ولغة ونحو وصرف ، وهو الى ذلك يعتنى أوفى العناية بتفسير شواهده الشعرية المنتقاة ولا يحرم القارىء من ذكر النوادر والطرف والحكايات والقصص التى لها تعلق بالكلمات ، والملحوظ أن استشهاده بالشعر كثير جدا وأن الآيات القرآنية الشريفة التى يستشهد بها لا تمر من غير أن يذكر تفسيرها الكامل ،

وما فيها من قراءات وفي الآية الشريفة « ان ناشئة الليل هى أشد وطئا » فسر المعنى وذكر قراءات ابن كثير ونافع ، وعاصم وحمزة والكسائى وابى عمرو وابن عامر ، بل انه في لفظتى ذواتا أفاض فى الحديث عنهما من كل وجهة وتحدث عن تصغيرهما وتثنيتهما وجمعهما .

والحق أن هذا المعجم موسوعة كبرى فان « ابن منظور الافريقى » مؤلفه لا يترك شيئا يتعلق بأية مادة في كتابه دون أن يدرسه دراسة عميقة وافية .

وابن منظور هو محمد بن المكرم بن منظور الانصارى الافريقى المصرى ، كان يذكر أنه ينسب الى رويفع بن ثابت الانصارى وقد ولد سنة ٦٣٠هـ ، وخدم في ديوان الانشاء وولى قضاء طرابلس الشام وكان صاحب فكاهة ونوادر . كما كان شديد الولع باختصار الكتب تيسيرا للانتفاع بها ومن أشهر مختصراته :

(١) لطائف الذخيرة لابن بسام .
(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر .
(٣) مختصر تاريخ بغداد للسمعانى .
(٤) مختصر مفردات ابن البيطار .

(٥) مختصر الأغانى لابى الفرج الاصفهانى .

وقد توفي وهو في الحادية والثمانين من عمره سنة ٧١١هـ

وقد استقى ابن منظور مادة كتابه من أصول خمسة وقرر في صراحة تامة أنه لم يخرج عما في هذه الأصول . وهى :

تهذيب اللغة للأزهرى ــ المحكم لابن سيده ــ الصحاح للجوهرى وحواشيه لابن برى ــ الجمهرة لابن دريد ــ النهاية لابن الأثير .

وقد طبع لسان العرب « لأول مرة في مصر طبعة أميرية في عشرين مجلدا واستغرق الطبع ثمانى سنوات من سنة ١٣٠٠هـ الى سنة ١٣٠٨ ، وبأول هذه الطبعة تقريظ لأحمد فارس الشدياق » ، وفى سنة ١٣٤٨هـ ابتدىء بطبعة ثانية بالمطبعة السلفية بتعليقات العلامة أحمد تيمور باشراف الأستاذ / عبد العزيز الميمنى الراجكوتي والمستشرق كرانكو ولكن لم يصدر منه غير جزءين فقط في حجم متوسط .

وبعد ذلك بعدة سنوات ابتدىء بطبعه طبعة ثالثة تنكر

فيها الطابع لترتيب المؤلف ثم طبع في مصر أخيرا طبعة كاملة صحيحة .

الكتاب موسوعة ومعجم وهو في هذا المجال يذكرنا بالمعجم الكبير الذى أصدر مجمع اللغة العربية جزءا منه اشتمل على حرف الهمزة فقط في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ففى هذا المعجم الأخير ثلاثة جوانب أساسية جانب منهجى هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب ، وجانب لغوى عنى بأن تصور اللغة تصويرا كاملا فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم وفيه أخيرا جانب موسوعى يقدم ألوانا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات أو الأعلام وروعى في هذا الجانب الجمع بين الحديث والقديم ما أمكن .

المستطرف .. للأبشيهي

في عهد دولة المماليك بمصر ، في القرن التاسع الهجرى (والخامس عشر الميلادى) كان الأدب قد بلغ غاية من الضعف ليس بعدها غاية ، كانت اللغة العربية قد أضمحلت حتى في الديار العربية نفسها بسبب تغلب غير العرب ودخول كثير من الكلمات الأعجمية في حياة الناس ، واظلم أفق الحياة الأدبية فلم يعد الشعر في أحسن حالاته الا ترديدا مقلدا لمعانى الاقدمين في عبارات وأساليب لا تستطيع أن تدانى عبارات الاقدمين وأساليبهم ، لفرط ضعفها واثقالها بالمحسنات اللفظية التى ليس وراءها طائل .

وتبعا لذلك فقد نشط المؤلفون في هذا العصر الى الجمع والتصنيف فكانت معظم مؤلفات العصر كتبا جامعة لشتات كثير من الموضوعات والمعانى ، ومنقولة من كتب السابقين اذ يقتصر جهد المؤلف على الجمع والتصنيف .

وبين أيدينا من مؤلفات ذلك العصر كتاب مشهور ،

لمؤلف ـ هو أيضا مشهور أما الكتاب فهو « المستطرف من كل فن مستظرف » وأما المؤلف فهو الابشيهى : بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور المحلى ونسبته كما جاء في أعلام الزركلى الى أبشويه أو كما جاء في المعجم الكبير الى أبشيه (ابشواى) لكن الزركلى قال ان ابشويه قرية من قرى الغربية بمصر ، أما المعجم الكبير فقد صحح ما وهم فيه صاحب الاعلام ، فذكر أنها من قرى الفيوم والظاهر أن هذا الوهم قد جاء من نسبته الى مدينة المحلة الكبرى التى أقام بها الابشيهى لكن اقامته بالمحلة الكبرى لاتستطيع أن تنفى نسبته الى أبشيه أو ابشواى الفيومية •

وللابشيهى غير المستطرف كتاب في الوعظ اسمه (أطواق الأزهار) ويقولون أن أسلوبه على العموم أسلوب ليس فيه مزية بلاغية أو بيانية •

وكان الابشيهى شاعرا ، روى لنفسه كثيرا من شعره في ثنايا كتابه « المستطرف » فقد ذكر في الباب الثانى والسبعين في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل لنفسه شعرا قدمه بكلمة يبدى فيها التواضع فقال : ولمؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول

ضعيف على قدر حاله ، لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وان يدعـو له بمغفرة ذنوبه : وقد قال في هذا الشعر

نسيم الصبا بلغ سليمى رسـائلى
بلذف وقل عن حال صبك سائلى

فقد صـار بالاسقام صبـا معـذبا
قريح جفـون من دموع هـوامل

صبورا على حـر الغـرام وبـرده
حليف الضنى لم يصغ يوما لعـاذل

ولكننا نعذر الشاعر الابشيهى فهذه سمات الشعر في عصره ، وتلك هى الطريقة التى كانت تصاغ بها الأشعار • ونلتفت من هذا المنطلق الى الشعر الذى ضمنه الابشيهى كتابه فنجده قد جمع الغث والسمين وضم الجيد والردىء •

وكتابه المستظرف من كل فن مستظرف كـتاب مؤلف للسمر والسمار ففى هذا العصر قربت المسافة جدا بين منزلة الأديب ومنزلة النديم الذى يتخصص في اضحاك الامير أو الوزير أو الثرى وتسليته وتكون وسيلته الى هذه التسلية

رواية النوادر والفكاهات والحكايات والأشعار فلابد اذن أن يكون لهذا المجتمع كتبه التى تناسب مجالسه حول موائد الطعام والشراب أو حول المدافىء في ليالى الشتاء • وكان من هذه الكتب المستظرف ، وليس للابشيهى جهد ملحوظ في كتابه الا الجمع والتصنيف •

يدور الكتاب على أربعة وثمانين بابا،ينقسم كثير منها الى فصول وقد قلنا ان الكتاب يجمع المعارف العامة التى كانت سائدة في ذلك العصر والتى كانت موضوعا لاحاديث الناس وسمرهم ، ولكن المؤلف أضاف الى الفصول المسلية فصولا أخرى جادة كالحديث عن الاسلام وأركانه والاخلاص لله تعالى وصفاته والقرآن وفضله والأحاديث والأمثال ذلك الى جانب أبواب عن السرقة والسراق والرشوة والمرتشين وصفات النساء المحمودة ، وصفاتهن المذمومة ونوادر النواتية والمعلمين والبخلاء والفقهاء والنحويين والى جانب فصول في الألغاز المنظوم منها والمنثور ومن أمثلة ما أورده من الألغاز هذا الشعر :

وما اسم سداسي اذا ما لمحته

ترى فيه أجزاء تذم وتشكر

لــه ثلث يــأتى به المــوت فجــأة
وثلث مع الــكتاب يطــوى وينشر

وثلث رعــاك الله ياصــاحبى لــه
على مـــدد الأيــام نشر معطــر

وفي نصــفه لما تحــرك بعضــــه
حــديث شهى في الليــالى يذكــر

وفي نصفه الثــانى اذا مــا اعــدته
الى النار للتحليل والعقــد سـكر

ففسر لنــا ذا اللغزان كنت ذا حجى
فليس على ذى العقــل لغــز معسر

قد يكون المقام محتاجا الى حل هذا اللغز ، واللغز عن مدينة (سمرقند) من ستة أحرف ثلثها حرفان ســين وميم والناظم يقول عن هذا الثلث له ثلث يأتى به الموت فجــأة والثلث الثانى راء وقاف أى رق والرق صحيفة الــكتابة والناظم يقول عن هذا الثلث وثلث مع الكتاب يطوى وينشر أما الثلث الثالث فمكون من النون والدال (ند) والنــد خشب طيب الرائحة والناظم يقول فيه :

وثلث رعاك الله ياصاحبى لـه
على مدد الايام نشر معطر

ثم يقسمه الى نصفين النصف الأول سمر وفيه يقول الناظم :

وفي نصفه لما تحرك بعضه
حديث شهى فى الليالى يذكر

أما النصف الثانى فهو القند أى العسل الأسود وعنه يقول :

وفي نصفه الثانى اذا ما أعدته
الى النار للتحليل والعقد سكر

هذا الكتاب صورة تمثل أكثر من جانب من جوانب عصر مؤلفه فهو يصور معارف العصر ، وهو يصور مستوى الذوق الأدبى فيه وهو يصور نشاط صناعة السمر والمنادمة ومادتها الأساسية التى تقوم عليها لكن المؤلف رحمه الله تعالى حين قصر جهده على النقل دون تحقيق ما ينقله وقع في أخطاء كثيرة من أمثلتها ما نسبه من الشعر الى سيف الدولة الحمدانى في وصف أحد السقاة وجاء خطأ الابشيهى من

أنه نقله من كتاب يتيمة الدهر للثعــالبى دون تحقيق أمــا الأبيات التى نسبت الى سيف الدولة ففيهــا وصف لقوس قزح يقول فيه :

يطرزهــا قوس السمــاء بأصــفر
على أحمــر في أخضر تحت مبيض
كاذيــال خــود أقبلت في غــلائل
مصبغــــة والبعض أقصر من بعض

والأبيات على التحقيق للشاعر على بن العباس المعروف بابن الرومى •

شفاء الغليل .. للخفاجي

لقد دخل اللغة العربية في شتى العصور ـ منذ كثر اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كلمات لم تكن من اللسان العربى ، وانما ترجع في أصولها الى تلك الأمم التى اختلط بها العرب ، لذلك نجد في اللغة العربية كلمات هندية الأصل أو فارسية أو رومية أو قبطية أو سريانية أو عبرانية وكذلك حرّف العامة بعض صحيح اللغة وظهرت أساليب وتعبيرات كثيرة أنشأتها الظروف والأحوال الاجتماعية ، ولم تكن موجودة في الأصل وهناك كلام صحيح أكثرت العامة من استعماله فابتذل فقل أو فنى من كلام الأدباء والشعراء فظن بعض الناس خطأه وهو عين الصواب .

كان لابد ـ اذن ـ من كتاب يفصل القول في هذا كله ، ويبين ما في كلام العرب من الدخيل ، والمولد ، مع بيان العربى الذى يظن بعض الناس أنه غير أصيل النسب الى لغة العرب فقام بهذه المهمة الجليلة عالم عربى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، هو شهاب الدين أحمد بن محمد

الخفـاجي المصرى المولود بسرياقوس ، قرية قريبـة من القاهرة ، والذى تلقى علومه بالجامع الأزهر ثم رحل الى الحجاز ومضى الى الاستانة وكانت وفاته سنة ألف وتسع وستين هجرية . وقد ألف الشهاب الخفاجي هذا كتبا قيمة هى (شفاء الغليل) فيما في لغة العرب من الدخيل الذى نحن بصـدد الكلام عنه الآن ، (شرح درة الغواص في أوهام الخواص) للحريرى وهو أقرب الى النقد منه الى الشرح ثم هو أخيرا ألف كتابا يسجل فيـه تعـريفات ببعض أدباء عصره سماه « ريحانة الالباء » .

يقول الشهاب الخفاجي في مقدمة الشفاء « جمعت فيه ما في كلام العرب من الدخيل دعانى اليه أن المعرب ألف فيه قـوم منهـم من لم يحم حـول ناديه ، ومنهم من دقق في التخريجات الغريبة وضممت اليه قسم المولد وهو الى الآن لم يدوّن في كتاب ، يقصد بذلك أن كتابه أول كتاب في اللغة العربية عنى بأمر المولد فدوّنه وبحثه ثم يتابع الشهـاب الخفاجي قوله في المقدمة : « وقد أوردت فيه ما يسر الناظر ويشرح الخاطر مع شيء من الرد والنقد ولطائف أدبية » .

كتاب شفاء الغليل قسمان : مقدمة ومعجم للكلمات .

أما المقدمة فقد بدأها المؤلف بذكر الأعجمى والصحيح منه وذكر الآراء المختلفة فيه اذا ورد في لغة العرب وهنا خصص جانبا من البحث للاعجمى الذى ورد في آيات القرآن الكريم وذكر صفوة الآراء في هذا الموضوع ، وعمدتها (أى أقواها وأعظمها فى ذلك رأي الشيخ ابى منصور الجواليقى المتوفي سنة ٥٣٩هـ وهو أن هذه الالفاظ أعجمية بحسب أصلها ولكنها لما عربت صارت من اللسان العربى) •

وألحق المؤلف بذلك فصلا ممتعا عن تغيير اللفظ المعرب وابداله حتى يوافق اللهجة العربية وأوزانها وحالاتها المختلفة ثم فصلا في اطراد الابدال في الفارسية وفي اثنائه ذكر العلامات التى يعرف بها اللفظ المعرب من اجتماع حروف فيه لا تجتمع في لفظ عربى أو وجود أوزان صرفية لم تعرف في أوزان الكلمات العربية ، وفي هذا الفصل بث فوائد علمية متفرقة كالاعجمى من أسماء الانبياء والعربى منها وكتعجيم العربى نظير تعريب الاعجمى •

وبعد هذه المقدمة البديعة يأتى معجم الكلمات وقد رتبه على وفق ترتيب حروف المعجم ولكنه لم يراع الترتيب الا في الحرف الأول تاركا ما عداه غير ناظر الى الحروف

الأصــلية أو الزائدة فقــد ذكر كلمة « آب » بعــد كلمة « أيوه » وبعد أربع وسبعين كلمة تسبقها كلها كلمة « آب » عند الترتيب الصحيح •

والخفاجي في الشفاء ينسب أكثر ما ذكره الى أصحابه الذين نقــل عنهــم ، وقد أكثر النقــل عن الأزهــرى ، والجوهرى ، والزمخشرى ، وابن هشــام ، والثعــالبى ، والكسائى ، والزبيدى ، وغيرهم من كبار علماء اللغة •

ولاتمام الفائدة من الحديث عن الكتاب نعرض بعض أمثلة من قسم المعجم فيه فهو يقول مثلا « قيصر : معرب من الروميــة » ، و « قرقس الطــين الذى يختم به فارسي معرب » و « أوج » كعرب من كلمــة أود بالدال بدلا من الجيم وهى كلمة هندية معناها العلو والارتفاع ثم « الصبر » نوع من السمك سريانى معرب » •

وهــذه الأمثلة التى ســقناها توضح اللغات المعرب عنهــا •

وفي مجال تصويب ما لحنت العامة فيه يذكر قدف ويقول ان صوابه جدف وفي مقام ارجاع بعض الكلمات التى تظن عاميتها الى أصول عربية صحيحة يذكر كلمة قرافة فيقول

ان قرافة اسم من أسماء بطن من قبيلة اسمها معافر نزلت محلة بقرب القاهرة فعرفت باسمها وهى الآن مقبرة كما يذكر أن كلمة « أيوه » التى نطق بها العامة عربية صحيحة وهى مؤلفة من ثلاث كلمات أى بمعنى نعم ، في القسم خاصة والواو واو القسم بقيت دليلا عليه وحذفنا ما عداها ثم تجىء فى آخر الكلمة هاء السكت فليست كلمة أيوه خطأ كما يتوهم بعض الناس •

هناك كتب سبقت الشفاء الى البحث في مثل موضوعه أو في قريب من موضوعه مثل كتاب « المعرب » فيما تكلمت به العرب من الاعجمى لابى منصور الجواليقى ، وقد أشار اليه الشهاب فى مقدمة الشفاء وكذلك كتاب (التكملة) للجواليقى أيضا ثم كتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى صاحب المقامات وقد عنى الشهاب الخفاجى به فشرحه ونقده •

لقد ألف كتاب شفاء الغليل في القرن الحادى عشر الهجرى حين شعر العلماء بآثار هجوم لغوى على اللغة العربية من لغات شتى ، وحين أحسوا بالحاجة الى تخليص لغتهم مما ملأها من الشوائب وتحديد ما عرب فدخلها

بصورة شرعية واضحة •

على أن هذا الكتاب حين يتكلم عن الكتابات الدخيلة الشائعة في عصره يعرض علينا من حيث يقصد أو لا يقصد صورة للحالة الاجتماعية في العصر العثمانى والمملوكى وذلك مثلا ذكره لقول العامة صب في القنديل زيتا فهو يبين أنها كناية عن الرشوة •

وبعد ذلك ماذا نستفيد من كتاب شفاء الغليل ؟

يوقف القارىء على ما في لغتنا من الدخيل والمولد ومقدمته وافية كافية فى موضوع الاعجمى ، وما يتعلق به من مباحث واستعراض جميل لآراء العلماء الثقات فيه ، وهو يحفل بكثير من الطرائف الأدبية والنوادر والملح والفكاهات فضلا عن كثرة الأشعار التى استشهد بها والتى تمتد فتشمل الشعراء منذ العصر الجاهلى حتى عصر المؤلف عن الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم غاية الغايات في هذا البـاب •

العمدة .. لابن رشيق

كان أبوه صائغا ، يصوغ من المعادن النفيسة حليا وتحفا فيها من الفن ودقة الصناعة وجمال المنظر الشيء الكثير .

حياته كالقصص الغريبة ، فقد ولد بقرية اسمها السيلة ، وأخذ يتعلم صناعة أبيه ، وكان به ميل الى الشعر والأدب ، فأخذ يسمع ويقرأ ويروى ثم ارتحل الى القيروان في أوائل القرن الخامس الهجرى ، وهناك ظهر اسمه ، وعرفته محافل الأدب ومجالس الأمراء والوزراء ، شاعرا رقيق الشعر ، لطيف الحديث .

ثم وقع في القيروان ما أوجب هجرته الى صقلية فهاجر اليها ، وعاش بها طويلا الى أن مات بقرية مازر احدى قراها وعمره ثلاث وسبعون سنة .

هذا هو أبو على الحسن بن رشيق القيراوانى (٣٩٠ — ٤٦٣ هـ) الذى بدأ حياته صائغا للذهب والفضة ثم انتهى

به الأمر الى أن صار صائغا لجواهر الكلام ، نذكره هنا وننذكر كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » وهو كتاب يعتبر من أعيان الكتب التى ألفت في القرن الخامس الهجرى في الأدب والشعر .

وينتسب ابن رشيق الى أب كان مملوكا روميا ، يحترف صناعة صياغة المعادن النفيسة كما قلنا ، ويرتفع الحظ بأبيه حتى يصير من كتاب ديوان (المعز بن باديس الصنهاجى) خليفة الفاطميين على أفريقيا ويصبح من أشهر أهل زمانه في عالم الأدب .

ولابى الحسن ابن رشيق كتب حسان أهمها وأشهرها كتاب « العمدة » الذى ذكرناه آنفا ، ومنها « قراضة الذهب » في النقد ، ومنها (انموذج الزمان في شعراء القيروان » ومنها « ميزان العمل في تاريخ الدول » و « شرح موطأ مالك » وألف كتابا في تاريخ القيروان وكتابا آخر في السرقات الشعرية .

واستكمالا لمعرفة ابن رشيق نذكر آنه شاعر ، وأن له ديوانا من الشعر منه قوله في المودة والاوداء .

أحب أخي وان أعرضت عنه
وقلّ على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض
كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض
وبغض كامن تحت ابتسام

ومن فكاهاته قوله وقد هاجمه البعوض ذات ليلة :

يارب لا أقوى على دفع الأذى
وبك استعنت على الضعيف الموذى
مالي بعثت الي ألف بعوضة
وبعثت واحدة الى نمروذ

وحين بلغ الخامسة والأربعين ، بكى على الشباب وشكا المشيب وقال في ذلك معنى يقول عنه ابن خلكان انه معنى غريب ، قال :

اذا ما خففت كعهد الصبا
أبت ذلك الخمس والأربعونا
وما ثقلت كبرا وطأتي
ولكن اجر ورائي السنينا

ولابن رشيق فوق ما تقدم كتاب اسمه « الشذوذ » في اللغة ، ويذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها وهو يدل على سعة علمه .

يقول في مقدمة كتاب العمدة :

(أما بعد فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب وأوفر حظوظ الأدب ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من الشعر لحكمة » .

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « نعم ما تعلمته العرب الابيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم » .

ثم يتابع حديثه في المقدمة فيقول : ولقد وجدت الناس مختلفين في الشعر متخلفين عن كثير منه فجمعت أحسن ما قال كل واحد منهم في كتابه ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، وعولت في ذلك على قريحة نفسي ونتيجة خاطري وخوف التكرار ورجاء الاختصار .

لقد استهل المؤلف كتابه بفصل ممتع في بيان فضل الشعر وفي هذا الفصل يتحدث عن اشتقاق كلمة الشعر

فيقول ، فتوهموا أعاريض ـ ويقصد بهـا التفـاصيل ـ جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أى فطنوا ٠

ثم ردّ على من يكره الشعر فروى شعرا للخلفاء والقضاة والفقهاء ، وذكر من رفعه بيت من الشعر ، ومن وضعه بيت ، تكريما للشعر واظهارا لأثره وبعد قليل آخذ يتحـدث عن البلاغة ما هى ؟ وعن الايجاز والاطناب والمساواة وعن المجاز والاستعارة ، والتمثيل يعنى بذلك تصوير المعانى في صور استعارية رائقة ، ويستمر في الحديث عن آلوان البلاغة في الكلام حديث العالم المتمكن الحجة ٠٠٠

فاذا انتهى من استعراض ذلك والتمثيل له ، وشرحه الشرح الوافى الشـافى عاد الى حديث الأدب العام وترك علوم البلاغة فاذا هو يتحدث عن أشهر الكتاب ، ويقول ان الكتاب ـ أى الذين يكتبون النثر ـ أرق الناس في الشعر طبعا وأملحهم تصنيعا وأحلاهم الفاظا ، وآلطفهم معـانى وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام ٠ ويروى بيتين من الشعر قالهما الـكاتب « ابراهيم الصولى » بين يدى الخليفة المتوكل حين أحضر

لمناظرته أحمد بن المدير فقال ارتجالا :

صـــــدّ عنى وصـــدق الأقـــوالا
وأطـــاع الوشـــاة والعــــذالا

اتـــراه يـــكون شـــهر صــــدود
وعلى وجهــــه رأيت الهـــلالا ؟

فطرب المتوكل واهتز وأعطاه جزيلا وخلع عليه ثيـــابا وأعطاه ركائب وجدد له ولايته •

وهو بعد ذلك أخذ يستعرض فنون الشعر وأغراضه المختلفة من نسب ومـــديح وفخر ورثاء وعتـــاب وهجـــاء واعتذار ، ولما كان كتابه يتحدث عن نقد الشعر فقد عرض لبعض عيوب المعـــانى ، وذكر الشعر المتـــكلف والركيك والضعيف ، وخصّص السرقات الشعرية بحـــديث يـــدل على أصالة الرأى وحسن الفهم •

الحق أن كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقـــده لابن رشيق القيروانى من أحسن الكتب فى بابه ،وهو يعد كتابا متخصصا فى الحديث عن الشعر من نواح كثيرة •

احياء علوم الدين .. للغزالي

محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسي ، أبو حامد ، اشتهر بلقب (حجة الاسـلام) وهو فيلسوف متصوف ، له كثير من المؤلفات التى بلغ عددها نحو مائتين ، قال بعضهم أنه الغزالى نسبة الى غزالة وهى ضاحية من ضواحى طوس بخراسان ، وقال آخرون أنه الغزّالى بتشديد الزاى ، نسبة الى غزل الصوف وابن خلكان يقول ان الغزالى بتخفيف الزاى هو خلاف المشهور .

عاش أبو حامد في القرن الخامس الهجرى ، وولد بطوس في خراسان في منتصف هذا القرن تماما سنة اربعمائة وخمسين هجرية ، وتوفي فى السنة السادسة من القرن السابع أى أن حياته لم تطل أكثر من ست وخمسين سنة ..

كان هذا العصر الذى عاش فيه الغزالى عصرا بلغت فيه الدراسات الاسـلامية غاية النضج ، وكذلك الدراسـات الأدبية واللغوية وهى في أصلها قد نشأت لخـدمة القرآن

العظيم والحديث الشريف ، وفي هذا العصر رفدت هذه الدراسات الاسلامية والأدبية روافد من ثقافات الأمم الأخرى ، من هند وفرس وروم ، وجاءت مع هذه الروافد نزعات من الالحاد والشك ، وتعالت سفسطة المنطق ونظريات الفلسفة بالجدل في أصول العقائد ونشأ ما يدافعها من علوم الكلام .

عاش الغزالى في هذا العصر ، ووعى ثقافاته وحضاراته ، وكان أبوه رجلا فقيرا صالحا يحب العلماء أعظم الحب ويبجلهم أعظم التبجيل ، وكم تمنى على الله أن يرزقه بولد صالح ينفع به الله عباده في الوعظ والتعليم وجلاء بصائر الناس بالهداية ، وكان يعمل بيديه ليكسب رزقه من غزل الصوف والى هذه الصناعة نسب وأخذ أبناؤه من بعده هذا النسب ولقد رزقه الله بولدين صالحين ، صار كل منهما عالما واعظا معلما .

أما أكبرهما فهو أحمد بن محمد الغزالى ، الملقب بمجد الدين الغزالى له لفتات جميلة في التفسير ، تلا أحد القراء أمامه قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

فقال : شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله (يا عبادى)
ثم انشد يقول :

وهان علي اللـــوم في جنب حبهـــا
وقـــول الاعـــادى انـــه لخليـــع
اصـــم اذا نوديت باســـــمى واننى
اذا قيـــل لى يا عبـــدهـــا لســـميع

أما أصغرهما فهو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى وهو موضوع هذا الحديث ، ونستعرض أولا كتبــه حتى نصل الى الاحياء وهو غايتنا من هذا الفصل .

ان كـــتبه كثـــيرة أولهـــا وأشهرهـــا « أحيـــاء عـــلوم الـــدين » ، ثم « تهـــافت الفـــلاسفـــة » وهو كتاب ينحى الغزالى فيه على آراء الفلاسفة ونظرياتهم بالهجوم والنقص وهو صريح في هذا الكتاب بان غرضه من تأليفه هو هدم الفلسفة وزعزعة ثقة الناس بها ، ولبيان أنها عمل غير ناجح ، ثم يأتى كتاب (الاقتصاد في الاعتقـــاد) و (القسطاس المستقيم) و (المنقذ من الضلال) و (الجام العوام عن علم الكلام) وله كتاب اسمه (ياقوت التأويل في تفسير التنزيل) قيل أنه فى أربعين مجلدا .

أما كتاب أحياء علوم الدين ، فيقول الغزالى في مقدمته :

(فاما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، مما سماه الله تعالى في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا ، ولما كان هذا ثلما في الدين ملما ، وخطبا مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، احياء لعلوم الدين ، وكشفا عن مناهج الامة المتقدمين ، وايضاحا لمناحى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين) .

ثم قال : وقد أسسته على أربعة أرباع وهى ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات وربع المنجيات ، وصدرت الجملة بكتاب العلم لانه غاية المهم ، وكل ربع من هذه الارباع يحتوى على كتب أى أبواب ، فربع العبادات مثلا فيه عشرة كتب هى كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن وكتاب الاذكار والدعوات وكتاب الأوراد في الأوقات .. وكل ربع من الارباع يشتمل على عشرة كتب .

وعلى سبيل التمثيل نذكر ما قاله في كتاب أسرار الطهارة

عن اللحية وما يكره فيها ، من ذلك : خضابها بالسواد ، وتبيضها بالكبريت ، وتنفها ونتف الشيب منها والزيادة فيها وتسريحها تصنعا لأجل الرياء ، وتركها شعثة اظهارا للزهد ، والنظر في سوادها عجبا بالشباب ، والى بياضها تكبرا بعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين ، وفي هذا المجال يذكر الغزالى كل ما ورد عن اللحية في الأحاديث الشريفة وما أثر عن السلف الصالح بل ما قاله الشعراء في الموضوع أو قريبا منه كالحديث الشريف (خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم) •

والحق أن هذا الكتاب موسوعة حافلة بالأحاديث الشريفة ، في كل غرض قصد اليه وبالآيات القرآنية فى كل مقصد قصده بل أنه كثيرا ما يقص القصص التى تمتلىء بالحكمة والموعظة الحسنة •

ولعل من تمام الحديث عن الغزالى ان نقول أنه اشتغل بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، بناء على طلب من الوزير نظام الملك ، وعلى أثر مناظرة ممتعة شهدها الوزير بين الغزالى وبين بعض العلماء ، وكانت سنه آنذاك لم تبلغ

الاربعين . وبقى بها أربع سنوات ثم اختار أن يسلك طريق الزهد والتصوف ، وقصد الحج وتوجه الى الشام ، وأقام بدمشق ومنها رحل الى بيت المقدس ثم قصد مصر ، وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد الى بلده طوس وصرف بقية حياته الى تحفيظ القرآن الكريم والتدريس ومجالسة أهل القلوب وأصحاب الزهد .

بدائع البدائه .. للأزدي

في القرن السادس الهجرى ، كانت الدراسات الأدبية قد نضجت غاية النضج ، وكثرت المؤلفات المختلفة في فنون اللغة والأدب والتاريخ ، وامتلأت تلك المؤلفات بالطرائف والنوادر مما يحسن أن يحفظه السمار والندماء ليزينوا به مجالس الامراء والوزراء والعلية من الناس .

ومن الكتب التى ألفت في هذا العصر ، كتاب « بدائع البدائه » للوزير المصرى (علي بن ظـافر الازدى) ، من وزراء الملك الأشرف ، فقد جمع هذا الكتاب كثيرا مما تفرق في كتب الأدب ، ككتاب الأغانى لابى الفرج الاصفهانى ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها .

هذا الكتاب « بدائع البدائه » ألفـه الوزير الاديب جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الازدى ، وزير الاشرف أحد ملوك بنى أيوب ، وقد ولد ابن ظافر في القاهرة سنة سبع وستين وخمسمائة ، وكان أبوه عالما فتخرج على يديه ،

وقرأ الأدب والأصول والتاريخ وأخبار الدول والملوك ، ثم اسلمه أبوه الى المدرسة الكاملية التى بناها بمصر الملك الكامل الايوبى .

وكانت الفترة التى عاش فيها بمصر من أخصب الفترات في تاريخها بالادباء والشعراء وأهل الادب فمن معاصريه « عبد الرحيم البيسانى » المعروف بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين الايوبى ، و « ابن مماتى » ناظر الدواوين بالديار المصرية ، والشاعر المشهور ، و « ابن سناء الملك » الشاعر الوشّاح المشهور ، والعماد الاصبهانى الكاتب المقتدر .

وحين صار الملك الاشرف ابن الملك العادل ملكا على جزء من بلاد الشام ، صحب معه « ابن ظافر الازدى » ، وولاه الوزارة ، وأكرم منزلته ، ولكن ابن ظافر لم يطق البعد عن القاهرة ومجالسها الادبية ، وماله فيها من صداقات ومودات ، وما كان يجرى بينه وبين زملائه من الشعراء والكتاب فيها من المساجلات والمداعبات أو قلْ ان أعباء الوزارة قد شغلته عن الأدب ، فتبرم بالوزارة ، وكره المناصب ، فتمنى لو استطاع أن يفلت من قيودها .

وذكر ذلك في كتابه فقال : كان يصحبنى وأنا في خدمة الملك الاشرف ابقاه الله رجل كاتب حسن الخط ، من أهل العلم والخبرة ، هاجر الى دمشق يقال له : جمال الدين على بن ابى طالب فلما رأيت ما أنا عليه من الأحوال والاختلال ونويت في نفسى الانفصال كنت ليلى ونهارى مكبا على الدعاء بتسهيل ذلك وتعجيله وتيسير ما أرجوه منه ، وأقمت على ذلك مدة طويلة بحيث كان الأمر مشهورا عند كل أحد من الحاشية فاخبرنى أنه بات مشغول القلب لما يسمعه منى فرأى في منامه كأنه في جامع دمشق تحت النسر ، واذا رجل شاب قد أقبل من الباب الغربى فقال له الشيخ يا أبا العباس ، أجز :

ان ابن ظافر سوف يظفر
بالذى يرجوه عاجل

فقال :

ظفرت عداه بخيبة
وغدا لما قد شاء عاجل

فسررت بذلك فلم يكن بأسرع من عودة الملك الاشرف من دمشق وانفصالى من خدمته على الوجه الجميل .

وعاد الى القاهرة على جناح السرعة وتفرغ للكتابة والتأليف حتى مات سنة ثلاث عشر وستمائة وكان عمره اذ ذاك لا يجاوز ستا وأربعين سنة ..

ومع أنه لم يعمر ، ولم يعش طويلا الا أنه ترك لنا تواليف كثيرة منها كتاب « بدائع البدائه » و « أخبار الدولة السلجوقية » و « أخبار الشجعان » وكتاب فى الأدب اسمه كتاب « التشبيهات » وله كتاب آخر اسمه « اخبار الدول المنقطعة » وقد جمع فيه اخبار الدول الاسلامية وحروبها وحوادثها ، ووضع فيه كثيرا من الأشعار والطرائف ، ورتبه على حسب السنين الهجرية ، وفيه تواريخ الحمدانيين والفاطميين والطولونيين والاخشيديين ودول الاندلس .

ذكر ابن ظافر أنه ادار كتابه على فصلين وخمسة آبواب اما الفصلان فأحدهما في بحث اشتقاق البديهة والارتجال، وقد ذكر أن البديهة مشتقة من بده يبده بمعنى بدأ يبدأ أبدلوا الهمزة هاء لقربها منها ، أما الارتجال فمأخوذ من قولهم ارتجل البئر وهو أن ينزل الرجل برجليه من غير حبل ، فكأنهم شبهوا اقتدار الشاعر على القول من غير فكرة ولا أهبة باقتدار نازل البئر على النزول من غير حبل ،

ولا آلة • أما الفصل الثانى فقد خصصه لشرح الفرق الفنى بين البديهة والارتجال وفي رأيه أن الارتجال هو القــول بسرعة وان البديهة دون ذلك •

أما أبواب الكتاب فالأول في بدائع الاجوبة ويعنى رد الشاعر على زميله بجواب شعرى دون اعداد سابق ، والباب الثانى في بدائع الاجازة والاجازة أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تتمة وكمالة ، ومن ذلك آن عمر بن ابى ربيعة قال شطرا من الشعر هو : تشط غدا دار جيراننا (تشط أى تبعد) فأجازه عبدالله بن عباس على الفور: و(للدار بعد غد ابعد) وخص الباب الثالث ببدائع التمليط وهو كما عرّفه ابن ظافر أن يجتمع شاعران فأكثر على تجريب خواطرهم فى معنى واحد واشتقاقه من الملاط أى الطين يدخل في البناء ، ويملط به الحائط تمليطا ، وهكذا يسير الــكتاب فيروى بدائع البدائه في كل حالاتها ولا ينسى ابن ظافر نفسه فيروى اشعاره وبدائهه فى موقعها من فصول الكتاب وأبوابه •

الحق أن هــذا الكتاب يدل على سعة علم وقوة حافظة ثم يكشف عن جانب البديهة والارتجال في آشعار الشعراء في مختلف الظروف والمناسبات •

مقامات بديع الزمان والحريري

في القرن الثالث الهجرى ، رحل الى نواحى فارس عالم راوية لغوى اديب هو أبو بكر بن دريد الازدى ، ليتقلد رئاسة ديوان الكتابة لال (ميكال) الذين كانوا ولاة لتلك البلاد من قبل المقتدر الخليفة العباسي ، وكان لابن دريد هذا صيت بعيد في الادب والعلم وهناك مدح الولادة بقصيدة مشهورة تسمى « مقصورة ابن دريد » سميت بذلك لان قافيتها على الالف المقصورة وأولها :

ياظبيـــة أشـــبه شيء بالمهـــا
ترعى الخزامى بين أشجار النقـا

وألف ابن دريد لابناء ميكال كتابه الشهير « الجمهرة » وهو من كتب اللغة المعتبرة .

وفى بلاد فارس سمع ابن دريد فنا من الكلام ، مبناه على القصة فأحبّ أن يعارضه بفن من الكلام العربى ، فأنشأ اربعين حديثا، ولكنه ما سماه المقامات ، أما الذى اطلق عليها

هذا الاسم فهو بديع الزمان الهمــذانى الذى صنع صنيع ابن دريد وعارضه ، أو هو قد عارض من عارض ابن دريد وهو الحسن بن فارس استاذ البديع .

لكن مقامات ابن فارس وقبلها مقــامات ابن دريد قد ضاعت ، ولم تبق الا مقامات بديع الزمان ، أو على الاصح نحو خمسين مقامة منها ، فظن أن البديع هو أول من ادخل هذا الفن الادبى في لغة العرب .

وأصل المقامة في اللغة موضع القيام ، وقد استعملت في موضع الجلوس استعمال الاضداد ، وروى اللغويون في ذلك قول الشاعر :

وكـالمســك ترب مقــامــاتهم
وتــرب قبـــورهـــم أطيــب

كما رووا قول زهير بن ابى سلمى المزنى :

وفيهــم مقــامات حسان وجوههم
واندية ينتابهـــا القــول والفعل

والملحوظ في بيت زهير أن المراد بالمقـامات الجماعــة الجالسين فيها .

ثم تطور معنى المقامة بعد أن انتقل من المكان الى الجالسين فيه ، فانتقل الى الكلام الذى يقال في المجلس •

بنى بديع الزمان الهمذانى مقاماته على (الكدية) أى الاحتيال على طلب الرزق ببعض الحيل الادبية ، ولعله أخذ ذلك مما كان منتشرا منها في بلاد الفرس وأواسط آسيا في ذلك الحين ، اذ كان يطوف بالمدن والقرى ابناء سبيل وحواة ، وأصحاب قردة ، وسحرة ، ومشعوذون ممن كانوا يتحيلون في جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك •

وجعل الهمذانى الحديث لرجلين تخيلهما ، احدهما شحاذ أديب هو « أبو الفتح الاسكندرى » والثانى راوية هو « عيسى بن هشام » • أما أبو محمد القسام بن على الحريرى فقد حذا حذو الهمذانى فادار الحديث على لسان راوية سماه الحارث بن همام ، وشحاذ سماه أبا زيد السروجى •

وكل من الاديبين العظيمين الحريرى والهمذانى ، قد جعل الشحاذة عنصرا أصيلا في المقامات ، وكل منهما قد بثّ في مقاماته ابياتا من الشعر ومقطوعات وقصائد ، وكل منهما

قد صاغ الاسلوب بحيث يبرز قدرة صاحبه على امتلاك ناصية اللغة وحفظ مفردات اللغة وشواردها وأيام العرب وأسواقهم وأمثالهم ٠

لكن النقاد يقولون ان البديع قد املى مقاماته ارتجالا أو في حكم الارتجال بنيسابور ، مع أنه ذكر فيها الغازا تحتاج الى الروية كسؤاله عن بيت من الشعر نصفه يغضب ونصفه يلعب وهو بيت عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم
مخاريق بايدى لاعبينا

وكسؤاله عن بيت مهين بحرف ورهين بحذف وهو يعنى قول ابى نواس :

لقد ضاع شعرى على بابكم
كما ضاع عقد على خالصه !

وجاء الحريرى بعده فاعجبته حكاية الالغاز فصرف اليها خمسا من مقاماته الخمسين هى الفرضية في مسألة من مسائل الميراث ، والنحوية فى لغز نحوى ، والطبية في مائة لغز طبى والملطية والشتوية وفيها خمسون لغزا فى قصيدة واحدة أولها :

عندى اعاجيب ارويها بلا كذب
عن العيان فكنّونى ابا العجب

ومن ألغازها قوله :

وجالسا ماشيا تهوى مطيته
به وما فى الذى اوردت من كذب

وهو يقصد بالجالس الآتى نجدا وبالماشي صاحب الماشية .

وكذلك قوله :

وبلدة ما بها ماء لمغترف
والماء يجرى عليها كجرى منسرب

وهو يعنى بالبلدة المسافة ما بين الحاجبين .

وذكر الحريرى ان شعر المقامات كله من تأليفه ما عدا بيتين اثنين فقط في المقامة الحلوانية وآخرين في المقامة الكرجية والبيتان الأولان لابى عبادة البحترى ، والآخران لابن سكرة الهاشمى وهو شاعر ماجن .

وقد عنى بشرح المقامات خلق كثير من العلماء والادباء ، لما فيها من فوائد لغوية ونحوية وبلاغية ، لكننا نرى أنها

من ناحية الفن القصصي شيء ضعيف جدا لا يمكن الاعتداد به في هذا المجال •

وجدير بالذكر أن نلفت النظر ، الى أن المقامات ترجمت الى كثير من اللغات وان عشرات من الشعراء والأدباء عارضوها في مختلف العصور ، حتى العصر الحديث حين جاء الاديب المنشيء محمد المويلحى ، فألف كتابه « حديث عيسى بن هشام » وهو اسم راوية البديع وصاغه على اسلوب المقامات ، ولكن فى موضوعات حديثة ابعدها عن الشحاذة والكدية وادخلها فى وصف المناظر وتصوير الحوادث وتحليل الشخصيات ولكنه التزم بالسجع والمحسنات والتلاعب بالالفاظ اللغوية وان يكن قصر عن الهمذانى والحريرى في هذا المجال •

جيش التوشيح .. لابن الخطيب

يثور الخلاف بين مؤرخي الآداب حول الموشحات وطبيعتها ، فهل هى فن اندلسي خالص نشأ من منبع عربي خالص بعيد الصلة من منبع الشعر العربى في الشرق أم هو فن متصل بهذا الشعر ، نشأ تحت ظروف البيئة الغربية الاندلسية وما فيها من جمال وما قام فيها من حضارة موسيقية بلغت الذروة على يدي زرياب الموسيقى الشهير فذهب الكثير من المستشرقين الذين عنوا بالادب الاندلسي ، أن الموشحات فن أندلسي خالص أهدته الاندلس الى الشعر العربى لونا مبتكرا من ألوانه ، وفنا مستحدثا لا صلة له بفنون الشعر القديمة ، ولعل هؤلاء المستشرقين كما يقول العالم الاديب الدكتور مصطفى الشكعة ــ واقعون تحت تأثير التعصب ــ الذى يبدو في كتابات كثير منهم .

الذى لا خلاف عليه أن فن التوشيح يقوم على أساس موسيقى هو بعينه الاساس الموسيقى الذى يقوم عليه الشعر ، فلها أوزان تأخذ وحداتها الفنية من تفاعيل الشعر

ووحداته الموسيقية فمثلا موشح « جادك الغيث » للسان الدين بن الخطيب وهو من أشهر الموشحات الاندلسية ان لم يكن أشهرها على الاطلاق يسير على وتيرة بحر الرمل ، وقد جاء فيه :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
فى الكرى أو خلسة المختلس

وهو كما نرى يجيء على وزن « فاعلاتن فاعلاتن فاعلات » .

وقد نشأت الموشحات كما قلنا فى ظل نهضة موسيقية وحضارة عظيمة ، وأول من قال الموشحات في الاندلس رجلان هما : « محمد بن محمود الضرير القبرى » و « مقدم ابن معافر » ، ولكنهما وضعا الأساس ثم جاء بعدهما وشاح عبقرى هو « عبادة بن ماء السماء » الذى نظم الموشحات فنونا ، وفي اغراض شتى ، وعلى مدى قرن من الزمان بعد عبادة ، كان الوشاحون قد كثروا ، وكان فن التوشيح قد بلغ أشده واستوى ، فتمكن « على ابن ابراهيم سعد الخير

البلنس » من تأليف كتاب يترجم فيه لبعض الوشاحين هو كتاب « نزهة الانفس وروضة التأنس في توشيح أهل الاندلس » لكن هذا الكتاب على نفاسة قيمته في تاريخ فن التوشيح قد ضاع مع ما ضاع من التراث الاندلسي ، أيام محنة العرب في الاندلس فلم تبق منه الا اشارات اليه في بعض المصادر التاريخية •

وكانت الموشحات قد سرت الى المشرق فنظمها الشعراء وافتنوا فى نظمها كل الافتنان ، والف « ابن سناء الملك المصرى » كتابه القيم « دار الطراز » في عمل الموشحات ، الذى يضم بين دفتيه نحو سبعين موشحا نصفها من نظم الوشاحين بالمغرب ، وتلاه « صلاح الدين بن ايبك الصفدى » فألف كتابه « توشيح التوشيح » لكنه لم يخصص نصفه لأهل المغرب كما فعل سابقه بل انه ذكر في كتابه ستين موشحا لم يذكر منها الا اربعة عشر موشحا مغربية • وهذا هو كل ما عرفنا من حصاد التأنيف في الموشحات قبل أن يصنف فيها لسان الدين بن الخطيب كتابه المشهور « جيش التوشيح » الذى يعتبر عمدة الكتب المؤلفة في الموشحات •

« جيش التوشيح » هو أحد مصنفات الوزير العظيم «محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد السلمانى» الشهير بلسان الدين بن الخطيب وقد ولد في برشلونة وأصل آبائه من قرطبة ، وقد اشتهر منهم سعيد الجد الاعلى بالخطابة فعرفوا ببنى الخطيب ، وتوارث الابناء هذا النسب الكريم ، وصار وزيرا لسلطان غرناطة أو الحجاج يوسف ابن اسماعيل ثم لابنه الغنى بالله ، ووشى به حساده فترك الاندلس واستقر بافريقية مكرما لدى سلاطينها حتى استطاع الغني بالله أن يظفر به وحوكم وقتل ، ومن أشهر ألقابه « ذو الوزارتين » و « ذو العمرين » لانه كان يسهر ليله في التأليف ويقضي نهاره في تدبير المملكة ، ومؤلفاته نحو ستين كتابا أشهرها « الاحاطة في أخبار غرناطة » و « الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة » وعلى اسمه صنف المقرى « نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » . وقد بنى له في المغرب قبر ضخم يليق بمكانته في عهد الملك محمد الخامس سنة ١٩٦٤م وسميت المستشفى القريبة منه مستشفى لسان الدين بن الخطيب .

ابن الخطيب وشاح عظيم قبل أن يكون مؤرخا للوشاحين أو لفن التوشيح ، وقد اشتهرت موشحاته ومنها الموشح الذى أشرنا اليه في صدر هذه الحلقة :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
فى الكرى أو خلسة المختلس

وهذا الموشح في أصله معارضة لموشح مشهور لابراهيم ابن سهل الاشبيلى وهو يقول فى أوله :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى
قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

والمكنس هو مأوى الظباء •

وكتاب « جيش التوشيح » الذى نحن بصدد الحديث عنه والذى الفه الوزير لسان الدين بن الخطيب ، كان مخطوطا حتى عهد قريب حين هيأ الله له اديبا عراقيا هو

الشاعر هلال ناجي ، وعالما مغربيا هـو الاستاذ محمد بن ماضور فحققاه وطبعاه ولقيا فى سبيله مشقة لا يعرفها الا من يعانيها واستحقا بذلك الشكر اجزل الشكر .

وفي الكتاب مائة وخمسة وستون موشحا ، لستة عشر وشاحا هم ابن بقى ، والاعمى التطيلى ، وابن الابيض ، وابن اللبانه ، وابن رافع راسه ، والكميت الاندلسي ، وابن شرف ، والمنيشي ، والصيرفي ، والخباز ، والسرقسطي الجزار ، وابن لبون ، وابن رحيم والوزير الحكيم ابو عامر ، وابن زهر الحفيد واحمد بن مالك .

ومن طريق ما يروى في هـذا ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا متنافسين لينشد كل منهم موشحا فبـدأ الأعمى التطيلى موشحه الذى يقول فيه :

ضـاحك عن جمـان

سـافر عن بـدرِ

ضـاق عنه الزمـان

فحـواه صـدرى

فلما سمعه زملاؤه مزقوا ما أعدوه وشهدوا له بالفوز والسبق .

رحلة ابن بطوطة

نعرض اليوم لادب الرحلات ممثلا في رحلة ابن بطوطة وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى اما اللواتى فهى نسبة الى لواتة احدى قبائل البربر ، امـا الطنجى ، فهى نسبة الى مدينة طنجة المعروفة التى ولد ونشأ بهـا سنة ٧٠٣ هـ .

ورحلات اهل المغرب الى المشرق دائمة ولا تنقطع منذ جاء الاسلام ودخل الناس في دين الله افواجا ، وقام الحج بين اركانه الخمسة فرضا واجبا عند الاستطاعة .

وهكذا بدأت رحلة ابن بطـوطة وبدأت رحلات غيره كابن جبير اذ كان الحج الى بيت الله الحـرام وزيارة تلك الديار المقدسـة هـو الباعث الاول على الرحلة لكن ابن بطوطة لـم يقم بالحج وكفى بل هاجت رحلة الحج شغفه بالرحلة فاندفـع يجوب أرجاء العالـم المعروفـة فى ذلك الحين ، ولم يفته ان يدوّن ما رأى من المشاهد والعجائب والمناظر التى استهوته وملأت نفسه متعة وسعادة بل دوّن

من ذلك أوراقا يمكن ان تتخذ اصولا لكتاب يضعه في وصف ما رآه بعد العودة الى بلاده والقاء عصا التسيار .

وفي الحق ان ابن بطوطة لم يقم برحلة واحدة بل هو قد قام بثلاث رحلات استغرقت ما يكاد يقرب من نصف عمره ، نعم فقد شغلت نحو ثلاثين سنة من حياته التى بلغت ثلاثا وسبعين سنة ولكن أطول هذه السفرات الثلاث هى التى حواها كتاب رحلته وقد طوّف فيها بأرجاء الشرق والغرب ، ولم يترك ناحية منهما الا زارها وقضى زمنا طويلا من هذه السفرة في الهند ، حين تولى القضاء سنتين وفي الصين حين تولى القضاء سنة ونصف السنة ، بل انه شارك في بعض الحروب ووقف بين الصفوف يرمى بالنشاب ويهاجم الاعداء .

انه يذكر في ثنايا ذكره لبلاد الهند تحت عنوان « ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند » ما يأتى :ـ

« ولما اردنا السفر من مدينة ابوهر ، خرج الناس منها أول النهار ، أقمت بها الى نصف النهار فى لمّة من اصحابى ، ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم اعاجم فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا

من الكفار فارسان ، وكان اصحابي ذوي نجدة وعتي فقاتلناهم اشد القتال فقتلنا احد الفارسين منهم ، وغنمنا فرسه قتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا ، واصابتني نشابة ، واصابت فرسي نشابة ثانية ومنّ الله بالسلامة منها لان نشابهم لاقوة لها وجرح لاحد اصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر الذي غنمناه ، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من اصحابنا » .

وفي الهند ذكر عادة احراق الموتى بالنار ، ووصف ذلك وصفا تفصيليا دقيقا ذكر فيه ما يجري خلال ذلك من الطقوس ومن غير المستطاع ان نذكر كل ما ذكره من العجائب في هذه الرحلة لكنا نستطيع ان نذكر خط السير فقد خرج من طنجة ومر بتونس ، ورآى الاسكندرية ومنارها ، وزار القاهرة ورأى النيل والاهرام ، وزار القدس وقبة الصخرة ، ومرّ على لبنان ثم سوريا ورآى دمشق وجبل قاسيون ، وذهب الى المدينة المنورة ، ووصف المسجد النبوي وصفادقيقا وافيا ، وذهب الى مكة وذكر الكعبة والحجر الاسود وبئر زمزم ، ومضى الى العراق ورأى بغداد والكوفة والموصل ، وزار مقدشو وظفار والقسطنطينية

وخوارزام وبلاد ما وراء النهر . ثم الهند ثم الصين موفدا اليها برسالة من احد سلاطين الهند كأنه سفير فوق العادة .

يقول : وبعث الي السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة ولبست ثيابه وقصدته وكان لى جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها ايام اعتكافى فلما جردتها ولبست ثياب السلطان انكرت نفسى وكنت متى نظرت الى تلك الجبة اجد نورا فى باطنى ولم تزل عندى الى ان سلبنى الكفار فى البحر ولما وصلت الى السلطان زاد فى اكرامى وقال لى انما بعثت اليك للتوجه عنى رسولا الى ملك الصين فانى اعلم حبك للاسفار والجولان .

وقد أسر ابن بطوطة فى بعض سفراته داخل بلاد الهند وذكر بهذه المناسبة مالاقاه من المصاعب والاهوال في رحلاته ولكنه كان يضحى بكل شيء في سبيل حبه للرحلات وعشقه للاسفار للبحث عن الغرائب والعجائب حيثما كانت .

ولا سبيل للحديث عن أسلوب ابن بطوطة في كتابه هذا لأن هذا الاسلوب الذى كتبت به الرحلة ليس له ولكنه لرجل آخر اسمه « محمد بن جزى » وتفصيل ذلك ان ابن

بطوطة حين عـاد من رحلته الى مدينة فاس وتسامع الناس بعجائب ما رأى ، وما سمع وما حدث له، وذكر ذلك للسلطان ابى عنان احد ملوك بنى مرين بالمغرب امره السلطان ان يدوّن رحلته وجلس احـد الكتاب من حاشية السلطان الى جانبه « محمد بن جزى » وقد كتب ابن جزى تقـديما للرحـلة يدوّن ما يمليه عليه ابن بطوطة ، وكان هذا الـكاتب هو « محمد بن جـزى » وقد كتب ابن جزي تقديـمـا للرحلة قال فيه :

« ونقلت معـانى كلام الشيخ ابى عبد الله ـ يقصد ابن بطوطة بالفاظ موفيه للمقاصـد التى قصـدها موضحـة للمناحي التى اعتمدهـا وربما اوردت لفظة على وضعه فلم اخل بأصله ولا فرعه » .

وهكذا يتضح ان ابن بطوطة لم يكتب هـذا الكتاب المضاف اليه وانما املى معانيه على ابن جزى فصاغه من عنده وربما كان العنوان الذى وضع للكتاب من عنده ايضا وهـو « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وقـد ترجم الى لغات عـدّة ونشر بهـا وتلقبه جمعية كامبردج فى كتبهـا واطاليسها بامير الرحالين المسلمين .



الـكاتب .. والـكتاب

أما الكاتب .. فهو الأديب الشهير الأســتاذ الشــاعر العوضي الوكيل . ولد بمصر في ١١ أبريل ١٩١٥م . ونال شهادة دار العلوم سنة ١٩٣٧ وتدرج في وظائف حكومية عديدة الى أن وصل الى درجة وكيل وزارة .

● له أكثر من ثلاثين مؤلفا بينها عشرة دواوين شعرية . ونال جائزة الشعر التشجيعية سنة ١٩٦٩ ، كما نال وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٧٠ . وزار معظم البلاد العربية .

أما الكتاب .. فتعريف موجز بكثير من أمهــات الكتب العربية .. في عرض جيد هو عرض الأستاذ الفاهم الدارس ، المطلع .. الذى اطال صحبة الـكتب ، وتوثقت بينــه وبين مؤلفيها صلات ألفة دائمة ....

